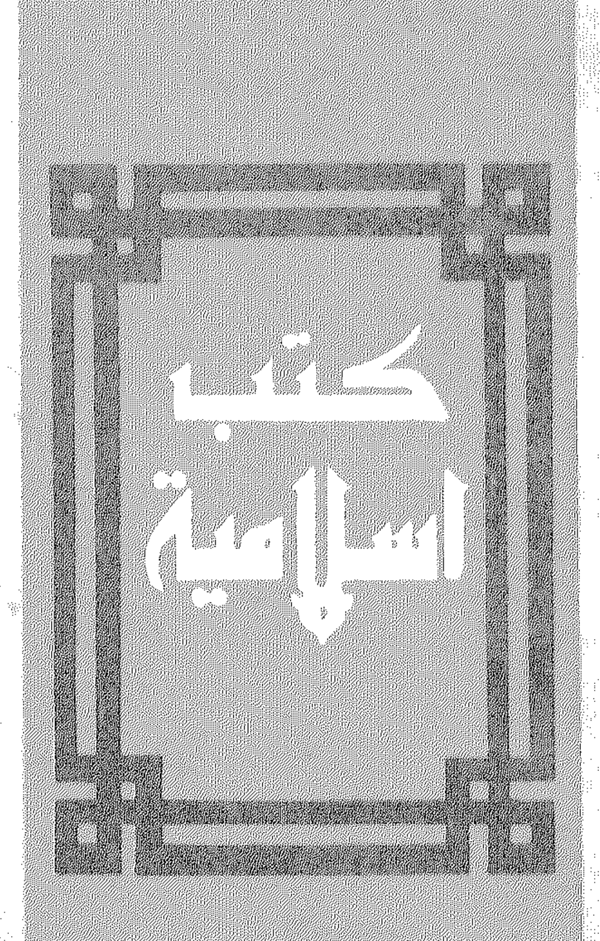


المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

معالم على طريق السنة

للدكتور أحمد عمر هاشم

يصدرها : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة
العدد ١٨٦

اهداءات ٢٠٠١

المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد

موجه اللغة العربية بوزارة التعليم

كتب إسلامية
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
القاهرة

معالم على طريق السنة

حسين أمين

للدكتور أحمد عمر هاشم

العدد ١٨٦
السنة السادسة عشرة
١٥ من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ
٩ من سبتمبر سنة ١٩٧٦ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة


اللّٰہ
جلّ جلالہ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعـــالى :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »

(صدق الله العظيم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ » .

(رواه ابو داود والترمذى)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على صاحب السنة المطهرة ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد

فان للسنة النبوية الشريفة منزلة « هامة » في الاسلام ، لأنها تمثل المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن الكريم ، كما تتناول توضيح ما جاء فى كتاب الله تعالى .. وقبل أن نبرز هذه المكانة العالية للسنة ، وتوضيح اهم الجوانب العلمية التى تتصل بها ، فاننا نرى انه من الضرورى أن نضع بين يدى القارىء بعض الحقائق الهامة التى توصلنا اليها من طريق دراستنا للحديث النبوى دراية « ورواية » وشرحا وتحليلا ، حتى يقف الباحث عن الحقيقة على طلبته ، ويثق بما جاء فى السنة الصحيحة ثقة مطلقة ، وهذه الحقائق نوجزها فيما يأتى :

أولا : ان التدوين الرسمى للسنة النبوية وان كان فى القرن الثانى الهجرى الا ان السنة كتبت فى القرن الأول ، ودونت تدوينا خاصا غير رسمى ، ونحن حين نتتبع طبيعة الحياة العربية يومئذ وقبلئذ ، نجد أن العرب كانوا يعتمدون على الذاكرة اعتمادا كبيرا ، ولطالما قام الحفظ فيهم مقام التدوين ، من أجل هذا لا نرى بأسا فى أن نقول : ان عصر تدوين الحديث بدأ فى عهد الوحى عن طريق الكلمة المسطورة والمحفوظة .. وواضح أن نهى الرسول صلى الله عليه وسلم كان عن الكتابة لا عن الرواية ، وأنه أذن للبعض

بالكتابة لما أنس فيهم من عدم اللبس ، ثم كان اذنه بعد ذلك بالكتابة عند ما تم نزول معظم الوحى وحفظه الكثيرون(١) .

ثانيا : ان لدينا يقينا مطلقا بأن الله تعالى وعد بحفظ القرآن الكريم وحفظه فعلا قال تعالى : ((**انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون**)) وهذا اليقين يفىء علينا يقينا قريبا منه بأن الله سبحانه قد حفظ كذلك من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم كل حقيقى وصادق ليكون بيانا لكتابه الذى تكفل بحفظه قال تعالى : ((**ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه**)) من أجل هذا نرى أن السنة قد قيض لها من أسباب التوثيق ما لم يحدث له نظير أبدا فى تاريخ البشر مثل « علوم الحديث ، والجرح والتعديل ، وجهاد الأئمة : كالبخارى ومسلم واخوانهما » وما بذلوه فى سبيل استخلاص الأحاديث الصحيحة حتى وصلت الينا بأدق الطرق العلمية .. والله أسأل أن يوفقنا لخدمة القرآن والسنة وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه وأن يجزينا عنه مغفرة لى ولوالدى وسائر المسلمين .

المؤلف

---

(١) انظر كتابنا : السنة النبوية فى القرن الثالث الهجرى .

الحاجة إلى السنة

تتضح الحاجة الى السنة فى بيانها للقرآن الكريم ، وتفصيلها لاحكام الدين ، والاجابة على كل ما تحتاجه الانسانية فى كل زمان ومكان ، فيما يتصل بالعقيدة ، والشريعة ، والأخلاق كما سيأتى بيان ذلك قريبا .. وقد أمر الله تعالى بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم كما أمر بطاعته فى قوله تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم**(١))) . كما أرسى القرآن قاعدة أساسية فى قبول ما جاء فى السنة ، وأن فى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة لله تعالى : ((**من يطع الرسول فقد أطاع الله**(٢))) .

اذا تبين لنا هذا فليس من الصواب فى شىء أن ينادى أحد ما بالاقتصار على القرآن وحده ولقد تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما ستتعرض له سننه الشريفة من تحديات بعض المغرضين ، وأصحاب الشبه الواهية التى لا أساس لها وأنهم سيقومون بدعوة خبيثة يحاولون فيها أن ينادوا بالاقتصار على القرآن وحده ، بغيا وعدوانا ، وحسدا وبهتانا ، وفى هذه الدعوة وأمثالها اهمال لنصف الدين ، وفى ترك السنة الشريفة استعجام لمعظم القرآن وعدم فهم للمراد منه عند الله تعالى : عن المقدام بن معد يكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **ألا اننى أوتيت الكتاب**

---

(١) النساء (٥٩) .
(٢) النساء (٨٠) .

ومثله معه ، الا يوشك رجل شبعان متكىء على اريكة يقول : عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، الا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد الا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فعليه أن يعقبهم مثل قراه »(١) .

ولقد حاول أعداء السنة ــ قديما وحديثا ــ أن يستدلوا على دعواهم الزائفة بخبر موضوع لا أساس له وهو : « اذا جاءكم عنى حديث فاعرضوه على كتاب الله . فما وافق فخذوه ، وما خالف فاتركوه » وقد وضح أئمة السنة وجه الحق فى هذا . وكشفوا عن كذب هذا الخبر ووضعه ، وأنه قد وضعه الزنادقة ليصلوا الى ما يريدون من تقويض المصدر الثانى للتشريع الاسلامى وهو الحديث النبوى الشريف ، يقول أئمة الحديث المتضلعون فى فهمه : عرضنا هذا الحديث على كتاب الله فخالفه لأنا وجدنا فى كتاب الله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ووجدنا فيه « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » ووجدنا فيه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . وهكذا يثبت القرآن الكريم أن نأخذ بما جاءت به السنة ، ونحن نتحدى دعاة الباطل أن يأتوا بآية واحدة تدعو أو تقول بعدم اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم الا فيما صرح به القرآن الكريم ؟ وانه لا سبيل الى بيان القرآن تفصيلا وتوضيحا الا عن طريق السنة لبيان أسباب النزول ، ومعرفة توضيح المبهم ، وتفصيل المجمل ، وتقييد المطلق ، وغير ذلك .. ولشدة الحاجة الى السنة ، عنى ائمة الحديث بالسند والمتن ، وقدموا دراسات مستفيضة فى الرواة وتاريخ ميلادهم ووفاتهم ومكانهم ، لمعرفة امكان السماع أو عدم امكانه ، ونقدوا السند والمتن بتمحيص شديد وتوثيق بالغ لا مثيل له ، فقد نظروا الى السنة النظرة اللائقة ، ففيها بيان لأصول الشريعة وفروعها وتوضيح للقرآن على يد من نزل عليه القرآن كما قال تعالى : **((وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون))** .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه .

مفهوم السنة

تعرف السنة عند أهل الحديث : بأنها أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وصفاته وسيره ومغازيه وبعض أخباره وبهذا يتبين لنا أن للسنة النبوية الشريفة أنواعا كثيرة :

فمنها ما كان قولا وهو أكثر أنواعها ، ومثاله : قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اتقوا الله وأجملوا فى الطلب فان نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وان أبطأ عنها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم » .

ومنها السنة الفعلية ، وهى أفعاله صلى الله عليه وسلم التى رواها الصحابة عنه ، مثل أدائه الصلوات الخمس بأركانها وسننها وهيئاتها وأدائه مناسك الحج والصوم والزكاة وغير ذلك من أعماله الشريفة صلى الله عليه وسلم ، ومن أمثلة السنة الفعلية ما أخبر به الصحابة وأمهات المؤمنين عن أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله ، مثال ذلك : ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلا قبل امرأته وهو صائم فوجد من ذلك وجدا شديدا فأرسل امرأته تسأل عن ذلك فدخلت على أم سلمة أم المؤمنين فأخبرتها فقالت أم سلمة : « ان رسول الله يقبل وهو صائم فرجعت المرأة الى زوجها فأخبرته ، فزاده ذلك شرا ، وقال : لسنا مثل رسول الله يحل الله لرسوله ما شاء فرجعت المرأة الى أم سلمة فوجدت رسول الله عندها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما بال هذه المرأة ؟ فأخبرته أم سلمة . فقال : « الا أخبرتها أنى افعل ذلك » ؟ فقالت أم سلمه قد أخبرتها فذهبت الى زوجها فأخبرته فزاده ذلك شرا وقال : لسنا مثل رسول الله ، يحل الله لرسوله ما شاء فغضب رسول الله ثم قال : « والله انى لأتقاكم لله ولأعلمكم بحدوده »(١) .

٣ — **القسم الثالث** : « السنة التقريرية » وهى ما أقره الرسول صلى الله عليه وسلم مما رآه من بعض الصحابة ، فعلا كان أو قولا . بان يقع ذلك فى حضرته فلا ينكره ، بأن يسكت عنه ، أو يوافق عليه مظهرا استحسانه وتأييده ، فيعد ذلك اقرارا ، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه انه خرج رجلان فى سفر وليس معهما ماء فحضرت الصلاة فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ثم وجدا الماء فى الوقت فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكرا ذلك له فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة » وقال للآخر : لك الأجر مرتين »(٢) .

النسبة بين السنة ، والحديث ، والخبر ، والحديث القدسى

سبق بيان ان المراد بالسنة هنا ما أراده المحدثون ، وهى مرادفة للحديث عند جمهورهم وهذا هو الذى سنسير عليه فى جميع بحوثنا من رسالتنا هذه .

---

(١) الموطأ ص ١٢٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، وقال الزرقانى فى شرح الموطأ ج ٢ ص ٩٢ : « وصله عبد الرزاق باسناد صحيح عن عطاء عن رجل من الانصار » ، ورواه الشيخان : فتح البارى ج ٤ ص ١٣١ ، ومسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٣٠٥ من حديث عمر بن ابى سلمة ، وأخرجه الامام أحمد فى المسند بنحوه ج ٥ ص ٤٣٤ ، وفى مجمع الزوائد ج ٣ ص١٦٦ قال الهيثمى «ورجاله رجال الصحيح » ، وأخرجه الدارمى ج ١ ص ٣٤٥ بنحوه بتحقيق السيد عبد الله يمانى .

(٢) رواه أبو داود عن أبى سعيد الخدرى ج ١ ص ٩٣ بتحقيق الاستاذ / محمد محى الدين ٢ وسبل السلام ج ١ ص ٩٧ ورواه النسائى .

واما الخبر : فهو عند علماء هذا الفن مرادف للحديث « فيطلقان على المرفوع وعلى الموقوف ، وعلى المقطوع وقيل : الحديث ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والخبر ما جاء عن غيره ، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة محدث وبالتواريخ ونحوها اخبارى(١) ، وقيل بينهما عموم وخصوص مطلق ، فكل حديث خبر ولا عكس (وقد يسمى المحدثون المرفوع والموقوف من الأخبار اثرا الا ان فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر)(٢) .

واما الحديث القدسى فهو كل قول اضافه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الله عز وجل ، ويسمى حديثا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يحكيه ويرويه عن ربه كما يروى الأحاديث ونسبته الى القدس بمعنى الطهارة والتنزيه ، ونسب الى الله ، لأنه صدر عنه تعالى :

وللعلماء في الأحاديث القدسية رأيان :

الرأى الاول : انها من كلام الله تعالى وليس للنبى صلى الله عليه وسلم الا حكايتها عن ربه سبحانه ، وذلك لأنها أضيفت الى الله فقيل عنها قدسية والهية وانها اشتملت على ضمائر التكلم الخاصة به تعالى ، كقوله : (يا عبادى . .) ، وانها تروى عن الله تعالى متجاوزا بها النبى صلى الله عليه وسلم فتارة يقول الراوى : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه) وتارة يقول : (قال الله تعالى فيما رواه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم) والمعنى فيهما واحد .

والرأى الثانى : (انها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه كالأحاديث النبوية وممن قال ذلك ابو البقاء وعبارته : (أن القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى ، واما الحديث القدسى فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بالالهام أو

---

(١) تدريب الراوى ص ٦ .
(٢) المرجـــع الســـابق .

بالمنام) واختار الطيبى(١) هذا الرأى ايضا ، وحكمة اضافة الأحاديث القدسية الى الله على هذا الرأى زيادة الاهتمام بها ، والتوجيه الى ما احتوته من آداب ومعان ومواعظ ومن بيان لعظمة الله تعالى واظهار رحمته .

وأرجح الرأى الثانى ، وهو انها من قوله صلى الله عليه وسلم ولفظه اذ لم ينزل باللفظ من قبل الله تعالى الا القرآن الكريم لتميزه عن بقية أنواع الوحى بانه معجز من اوجه كثيرة : منها اعجازه اللفظى والبيانى ، فلا تصح روايته بالمعنى ، لأنه معجزه خالدة على مر الزمان محفوظ من التبديل والتغيير قال تعالى : ((**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**))(٢) .

وأما رواية الأحاديث القدسية عن الله تعالى واضافتها اليه واشتمالها على ضمائر التكلم الخاصة به سبحانه فهذا على معنى أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : افعل كذا ، وأمر بكذا ... فيبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ، بألفاظ من عنده (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى ، علمه شديد القوى)(٣) .

الفرق بين الأحاديث القدسية والقرآن :

١ ــ ان الأحاديث القدسية ما كان لفظها من عند النبى صلى الله عليه وسلم على رأى البعض ومعناها من عند الله بالالهام او بالمنام بوحى جلى أو لا ، وأما القرآن فهو ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى بمعنى : أن ينزل به جبريل عليه السلام بلفظه من عند الله سبحانه فى اليقظة وليس فى المنام ولا بالالهام .

٢ ــ الأحاديث القدسية تصح روايتها بالمعنى اما القرآن فتحرم قراءته بالمعنى .

---

(١) قواعد التحديث ص ٦٦ .
(٢) سورة الاسراء ٨٨ .
(٣) سورة النجم (٣ ــ ٥) .

٣ ــ الأحاديث القدسية لا يتعبد بقراءتها أما القرآن فيتعبد بقراءته ، ويتعين في الصلاة ولا كذلك الأحاديث القدسية .

٤ ــ ان القرآن الكريم معجزة خالدة متواتر اللفظ في كلماته وحروفه واساليبه أما الأحاديث القدسية فليس لها هذا التواتر ، وليست بمعجزة .

٥ ــ ان القرآن يحرم على المحدث مسه ، وعلى الجنب تلاونه ومسه بخلاف الأحاديث القدسية .

الفرق بين الحديث القدسى والنبوى :

هو ان الحديث القدسى مقطوع بنزول معناه من عند الله تعالى لما ورد فيه من النص الشرعى على نسبته الى الله بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « قال الله تعالى كذا .. » فلذا سمى قدسيا ، أما الحديث النبوى فلم يرد فيه مثل هذا النص لأن منه ما هو « توفقى » مستنبط بالاجتهاد والرأى من كلام الله والتأمل فى حقائق الكون وهذا ليس كلام الله ، ومنه ما هو « توقيفى » جاء به الوحى الى الرسول صلى الله عليه وسلم فبينه للناس بكلامه وهذا القسم وان كان مرجعه الى الله تعالى الملهم والمعلم الا انه لما كان من قول الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعه كان حريا أن ينسب اليه ويطلق على القسمين حديثا نبويا وقوفا بالتسمية عند الحد المقطوع به(١) .

(١) النبأ العظيم للدكتور / محمد عبد الله دراز طبع مطبعة السعادة ص ١٠ ، ١١.

منزلة السُنة في الدين

السنة هي الأصل الثاني من اصول الاسلام أجمع فقهاء المسلمين قديما وحديثا من لدن الصحابة رضوان الله عليهم الى يومنا هذا الا من شذ من بعض الطوائف على الاحتجاج بها واعتبارها المصدر الثاني للدين بعد القرآن الكريم فيجب اتباعها وتحرم مخالفتها ، وقد تضافرت الأدلة القطعية على ذلك فأوجب الله سبحانه على الناس طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين أنه عليه الصلاة والسلام هو المبين لما أنزل من القرآن ، وذلك بعد أن عصمه من الخطأ والهوى في كل أمر من الأمور ((**وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى علمه شديد القوى**(١))) كما عصمه من الناس حين أمره بتبليغ ما أنزل اليه قال تعالى : ((**يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين**))(٢) .

فهو اذا قد مهد لرسوله طريق الدعوة وذلل له مهمة تبليغها فبين سبحانه وتعالى للناس ما يأتي :

أولا : وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سورة النجم ٣ — ٥ .
(٢) المائدة (٦٧) .

ثانيا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي يبين للناس كتاب ربهم سبحانه وتعالى .

وهذان الامران متلازمان في اثبات حجية السنة لأن الله تعالى أوجب طاعة رسوله عليه الصلاة والسلام لأنه يبين للناس ما انزل اليهم ، قال الشاطبي : (فاذا عمل المكلف على وفق البيان أطاع الله فيما اراد بكلامه وأطاع رسوله في مقتضى بيانه . ولو عمل على مخالفة البيان عصى الله تعالى في عمله عصى مخالفة البيان اذ صار عمله على خلاف ما أراد بكلامه وعصى رسوله في مقتضى بيانه)(١) .

وسنتناول الحديث عن هذين الأمرين وهما وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وبيان أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي يبين للناس ما نزل اليهم :

أولا : وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم :

فرض الله سبحانه وتعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وورد الأمر بها في القرآن الكريم على وجوه تختلف باختلاف أحوال المخاطبين ومشاربهم ونياتهم ، فمنهم اليهودي الذي يحتاج الى كثرة الأدلة . والمنافق الذي يحتاج الى اسلوب التهديد ، والمؤمن الذي يقبل الامر ويعرف هداية الله من أقرب طريق . وقد سلكت آيات القرآن الكريم في بيان ذلك مسلكا مناسبا ونهجت منهجا حكيما :

١ — فقد دلت مرة على وجوب طاعة الرسول ، بالأمر بالايمان بالرسل « وهذا يستلزم وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قوله تعالى : **((يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله))(٢)**

---

(١) الموافقات (٤ : ١٩) .
(٢) سورة النساء آية ١٧١ .

وقال تعالى ((**فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم**))(١) فالأمر بالايمان بالرسل مع الايمان بالله لا يكون الا اذا كان مع الايمان تصديق لما يبلغه الرسول عن الله واذعان وطاعة لهديهم وعلى هذا فرسولنا صلوات الله وسلامه عليه يجب الايمان به لأمر بالايمان بالرسل وطاعته واجبة كطاعتهم التى استلزمها الأمر بالايمان بهم .

٢ — ودلت الآيات أيضا على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم باقتران الأمر بالايمان به مع الأمر بالايمان بالله سبحانه « قال الله تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل**(٢)) وقال الله تعالى : (**فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ، والله بما تعملون خبير**) (٣) وقد أظهر الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها مكانة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فنص على الايمان به ، ولم يكتف بالأمر العام السابق رغم دخوله فيه ، وذلك لأن رسالته خاتمة وبعثته عامة فاقتضت الحكمة أن يخص بمزيد عناية ، ويفهم من ذلك الأمر بطاعته قال الامام الشافعى رضى الله عنه : (وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذى أبان جل ثناؤه أنه جعله علما لدينه لما افترض من طاعته وحرم من معصيته وأبان من فضيلته بما قرن من الايمان برسوله مع الايمان به فقال تبارك وتعالى : (فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم انما الله اله واحد سبحانه أن يكون له ولد)(٤) وقال : (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه)(٥) .

فجعل كمال ابتداء الايمان الذى ما سواه تبع له الايمان بالله ثم برسوله(٦) أ . هـ .

٣ — كذلك دلت الآيات على وجوب طاعة الرسول صلى الله

---

(١) سورة آل عمران آية ١٧٩
(٢) سورة النساء آية ١٣٦ .
(٣) سورة التغابن آية ٨ .
(٤) سورة النساء آية ١٧١ .
(٥) سورة النور آية ٦٢ .
(٦) الرسالة للامام الشافعى ص ٧٣

عليه وسلم بايجاب الله تعالى طاعة الرسل قال تعالى : (وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله)(١) فطاعة الرسل اذا هى الهدف من ارسالهم ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم كواحد من الرسل داخل فى مضمون الحكم العام فينطبق عليه الحكم بوجوب طاعته لاسيما والرسل قبله كانت شرائعهم خاصة بطائفة معينة أما رسولنا عليه الصلاه والسلام فشريعته عامة وخاتمة ، لذا كانت طاعته آكد والزم .

٤ — اقتران الأمر بطاعة الرسول بالأمر بطاعة الله قال تعالى: (قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين)(٢) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)(٣) والناظر الى الآيات الواردة فى وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم يرى ان منها ما جاء الأمر بطاعة الله مقرونا بالأمر بطاعة الرسول بالعطف بالواو كالآية الأولى حيث يفيد ذلك مطلق الاشتراك والجمع بينهما ، أو بطريق العطف بها مع اعادة العامل حيث يفيد ذلك تأكيد عموم الطاعة فى كل ما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما جاء بتكرار العامل فى شيئين مع العطف على الأخير بدون تكرار العامل كقوله تعالى : « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » بدون تكرار العامل فى عطف أولى الأمر .

وهذا يدل على ان اولى الأمر ليس لهم طاعة مستقلة ، وليس لهم تشريع خاص يصدر عنهم (وانما يطاعون فيما شأنه أن ينقلوه ويباشروه فى اطار من الدين الذى شرعه الله قرآنا كان أو سنة)(٤) فطاعة الرسول اذا واجبة فى كل ما اتى به سواء كان فى الكتاب الكريم أو ليس فيه .

---

(١) سورة النساء آية ٦٤ .
(٢) سورة آل عمران آية ٣٢ .
(٣) سورة النساء آية ٥٩ .
(٤) السنة النبوية ومكانتها فى التشريع ص (٥٨) .

٥ ـ أمر الله بطاعة الرسول على الانفراد قال الله تعالى : **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)**(١) وقال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون) (٢) وقال تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(٣) ففى هذه الآيات نص صريح على وجوب طاعة الرسول والتسليم لحكمه واتباعه ، وهذه الطاعة فى حال حياته وبعد وفاته ، ففى حال حياته كان الصحابة يتلقون أحكام الشرع من القرآن الذى اخذوه عن رسولهم صلى الله عليه وسلم ، حيث كان يبين لهم ما أنزل اليهم ، وحيث كان كذلك يبين لهم كثيرا من الأحكام حين تقع بهم الحوادث التى لم ينص عليها فى القرآن ، فهو اذا كان يطبق لهم الأحكام من حلال أو حرام مما كان مصدره القرآن أو الوحى الذى يوحيه الله له (**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال** التى كانت عليهم(٤)) وقد حث الله على الاستجابة لما يدعو له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم**)(٥) ولم يبح الله لمؤمن ولا مؤمنة مخالفة حكم الرسول أو امره قال تعالى : (**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**)(٦) وقد كان المسلمون يقفون عند حدود أمره ونهيه ومتبعين له فى عباداتهم ومعاملاتهم وقد بلغ من طاعتهم للرسول واقتدائهم به أنهم كانوا يفعلون ما يفعل ويتركون ما يترك ولم يجز واحد منهم لنفسه مراجعة الرسول الا اذا كان هناك أمر غريب عن عقولهم فيناقشونه ليعرفوا الحكمة فيه فقط كما لم يجز واحد منهم مراجعته فى أمر (الا اذا كان فعله أو قوله احتهادا منه فى أمر دنيوى كما فى غزوة بدر حين

---

(١) سورة النساء آية ٦٥ .
(٢) سورة النور آية ٥٦ .
(٣) سورة الحشر آية ٧ .
(٤) سورة الاعراف آية ١٥٧ .
(٥) سورة الانفال آية ٢٤ .
(٦) سورة الاحزاب آية ٣٦ .

راجعه الحباب ابن المنذر فى مكان النزول) (١) ومثل هذا انما حدث تطبيقا لمبدأ الشورى فى الاسلام .

واذا كان الحال هكذا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانه ايضا تجب طاعته واتباع سنته بعد وفاته ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه انتقل الى الرفيق الأعلى بعد أن اطمأن تماما على أنه أرسى معالم الدين وأدى الأمانة الالهية على منهاج الحق ووصى المسلمين أن يطيعوه ويتبعوه بعد وفاته تمسكا بالكتاب والسنة وسيرا على هديهما كما قال صلى الله عليه وسلم : (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى) (٢) وكما وجب على الصحابة بنص القرآن اتباع الرسول وطاعته فى حياته وبعد مماته كما فى الحديث السابق وجب على من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته ؛ لأن النصوص التى أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته ولا بصحابته دون غيرهم ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم وهى انهم أتباع لرسول أمر الله باتباعه وطاعته (٣) لهذا كله تلقى الصحابة السنة النبوية وبلغوها الى من بعدهم .

ثانيا : منزلة السنة من القرآن وبيانها له :

تبين من البحث السابق أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة على المسلمين وأنهم تقبلوا منه السنة كما تقبلوا القرآن مستجيبين لله الذى أمرهم باتباع النبى وطاعته . وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مهمته هى التبليغ وبيان ما فى القرآن من أحكام وقواعد وغير ذلك فرسالته ليست قاصرة على التبليغ ، وانما لابد مع التبليغ من البيان ، وهو الأمر الثانى فى اثبات حجية السنة .

---

(١) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٦ .
(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك وفى جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٨٠ والموطأ شرح الزرقانى ، والترغيب والترهيب .
(٣) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٦٧ .

فالقرآن الكريم جاء بالأصول العامة ، ولم يتعرض للتفاصيل والجزئيات . ولم يتعرض لها الا بالقدر الذى يتفق مع تلك الأصول ويكون ثابتا بثبوتها ، لا يعتريه تغير أو تطور باختلاف الأعراف والبيئات ومرور الأزمان . لأنه الكتاب الخالد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اشتمل على العقائد والشرائع وعلى الآداب والأخلاق مكان تبيانا لكل شىء ، وجاءت السنة الشريفة توافق الكتاب الكريم وتتعرض للتفصيلات والجزئيات : ففسرت مبهمه وفصلت مجملة وقيدت مطلقة وخصصت عامه وشرحت أحكامه كما أتت السنة كذلك بأحكام لم يرد فى القرآن نص عليها وجدت بهذا متممة ومطبقة لما فى القرآن الكريم فكانت مرتبتها بعد القرآن . (وأيضا فان السنة اما أن تكون بيانا للكتاب أو زيادة عليه . فان كانت بيانا فهى فى الاعتبار بالمرتبة الثانية عن المبين ، فان النص الأصلى أساس والتفسير بناء عليه وان كانت زيادة فهى غير معتبرة الا بعد أن لا توجد فى الكتاب وذلك دليل على تقدم اعتبار الكتاب) (1) وكل ما جاء فى السنة النبوية على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم انما يتبع فيه ما يوحى اليه قال تعالى: **(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا اقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى)**(2) ولهذا جعل الله تعالى طاعة رسوله طاعة له ، وأوجب على المسلمين اتباع بيانه فيما يأمر وينهى قال تعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله (3)) ، وقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(4) اذا فالرسول صلوات الله وسلامه عليه حين يبين للناس ما نزل اليهم لا يصدر فى بيانه من تلقاء نفسه وانما يتبع ما يوحى اليه ، وقد امتن الله تعالى على رسوله بأن أنزل عليه الكتاب . ليشرح ما جاء فيه ، ويظهر المراد منه فقال تعالى : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »(5) . وروى المقدام بن معد يكرب قال : « حرم النبى صلى الله عليه وسلم أشياء يوم خيبر منها الحمار

---

(1) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٢٤ .
(2) سورة الانعام آية (٥٠) .
(3) سورة النساء آية (٨٠) .
(4) سورة الحشر آية (٧) .
(5) سورة النحل آية (٤٤) .

الأهلي وغيره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكه يحدث بحديثي فيقول بيني وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وان ما حرم رسول الله »(١) .

وينقسم بيان السنة الى أقسام :

الأول : بيان التقرير ، وهي ان تكون السنة موافقة لما جاء به القرآن ومؤكده له ، ومن ذلك : ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بني الاسلام على خمس » شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة والحج ، وصوم رمضان »(٢) فانه يوافق قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة »(٣) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم)(٤) وقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا(٥) .

الثاني : بيان التفسير لما جاء في القرآن ، وهذا القسم اغلب الأقسام وأكثرها ورودا ، فمنه بيان المجمل : كالاحاديث التي بينت العبادات وكيفياتها كفريضة الصلاة مثلا فقد فرضها الله تعالى في القرآن من غير أن يبين أوقاتها وعدد ركعاتها وأركانها وكيفيتها ، فبين الرسول صلوات الله وسلامه عليه ذلك كله بصلاته وتعليمه

---

(١) رواه الترمذي (٢ : ١١١) وابن ماجه (١ : ٥) والدارمي (١ : ١١٧ تحقيق السيد عبد الله يماني ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ١٣٠) وهو حديث صحيح كما قال الترمذي .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٥٥ ، ورواه مسلم من طريق سعد بن عبيدة بتقديم الصوم على الحج ج ١ ص ١٥٠ ط الشعب ورواه أيضا بتقديم الحج على الصوم ص ١٥١ ورواه الترمذي ج ٤ ص ١١٩ وقال حديث حسن صحيح ، والمسند ٣٦٤/٤ .

(٣) سورة البقرة (٨٣) .

(٤) سورة البقره (١٨٣)

(٥) سورة آل عمران (٩٧) .

الناس وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » (١) ومثل ذلك فى الحج والزكاة وغير ذلك من العبادات التى وردت فى القرآن مجملة وفصلتها السنة النبوية . ومن هذا القسم تقييد المطلق : «كالاحاديث التى بينت المراد من اليد فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »(٢) فوضحت السنة انها اليد اليمنى وان القطع من الكوع لا من المرفق . (٣) ومن هذا القسم ايضا تخصيص العام . كالاحاديث التى خصصت الوارث والمورث فى قوله تعالى: « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين »(٤) فخصصت السنة المورث بغير الأنبياء قال صلى الله عليه وسلم : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » (٥) كما خصت السنة الوارث بغير القاتل ، بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ليس للقاتل شيء فان لم يكن له وارث فوارثه أقرب الناس اليه . ولا يرث القاتل شيئا » (٦) .

الثالث : أن تكون السنة ناسخة لحكم ثبت بالقرآن على رأى من يجوز نسخ الكتاب بالسنة وهذا مثل حديث « لا وصية لوارث »(٧) فهذا الحديث نسخ حكم الوصية للوالدين والأقربين الوارثين الثابت بقوله تعالى « كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين »(٨) والنسخ من قبيل البيان لأنه بيان انتهاء امد الحكم ولذلك يطلق عليه بعض علماء الاصول بيان التبديل » (٩) .

---

(١) أخرجه البخارى ج ١ ، ص ١٢٥ حاشية السندى ، وأخرجه الدارمى ج ١ ص ٢٣٠ تحقيق السيد يمانى ٢ وأخرجه الامام احمد والنسائى ج ٢ ص ٥٩ بنحوه والشافعى فى مسنده ص ١٩ .

(٢) المائدة (٣٨) .

(٣) الحديث والمحدثون ص ٣٨ .

(٤) سورة النساء (١١) .

(٥) فتح البارى ج ٦ ص ٢٨٩ صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٧٨ ، مسند احمد ج ١ ص ٣٣٤ شاكر والموطأ ص ٢٥٤ .

(٦) رواه أبو داود فى سننه (٤ : ٣١٣) من طريق محمد بن راشد باسناد صحيح . ورواه الترمذى (٢ : ١٤) ، سنن ابن ماجه : (٢ : ٧٤) .

(٧) سبق تخريجه ص ٦ .

(٨) سورة البقرة ١٨٠ .

(٩) الحديث والمحدثون ص ٤٠ .

الرابع : أن تكون السنة دالة على حكم لم يرد في القرآن وهذا القسم اختلف العلماء فيه ، فذهب الجمهور الى أن السنة أثبتت أحكاما جديدة على طريق الاستقلال . وذهب صاحب الموافقات وآخرون الى انها أثبتت أحكاما داخلة تحت نصوص القرآن ولو بتأويل وقال الشافعي رحمه الله في القسمين الأول والثاني :

« والوجهان يجتمعان ويفترعان : أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب فبين رسول الله مثل ما نص الكتاب . والآخر مما أنزل الله فيه جملة كتاب فبين عن الله معنى ما أراد وهذان الوجهان اللذان لم يختلفوا فيهما » (١) ، ثم ذكر الامام الشافعي هذا القسم الذى دات السنة فيه على حكم لم يرد في القرآن فذكر اختلاف العلماء فيه قال « فمنهم من قال جعل الله له بما افترض من طاعته وسبق في علمه من توفيقه لرضاه أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب . ومنهم من قال لم يسن سنة قط الا ولها أصل في الكتاب كما كانت سنته لتبين عدد الصلاة وعملها على أصل جملة فرض الصلاة ، وكذلك ما سن من البيوع وغيرها من الشرائع لأن الله قال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل(٢) » : وقال « وأحل الله البيع وحرم الربا »(٣) فما أحل وحرم فانما بين فيه عن الله كما بين الصلاة ، ومنهم من قال « بل جاءته به رسالة الله فأثبتت سنته بفرض الله » ومنهم من قال (ألقى في روعه كل ما سن وسنته الحكمة التى ألقى في روعه عن الله . فكان ما ألقى في روعه سنته (٤)) .

ويتضح من كلام الامام الشافعي السابق أن أصحاب الرأى الأول والثالث والرابع يرون أن السنة تستقل بالتشريع في بعض الأمور ، أما أصحاب الرأى الثاني فيرون انها لا تستقل بالتشريع وانما تدخل أحكامها ضمن نصوص القرآن .

---

(١) الرسالة ص ٩٢ .

(٢) سورة النساء (٢٩) .

(٣) سورة البقرة (٢٧٥) .

(٤) الرسالة للامام الشافعي ص ٩٣ .

أدلة القائلين بالاستقلال :

استدل القائلون باستقلال السـنة بالتشريع فى بعض الامور بأنه قد ورد فى القرآن الكريم ما يوجب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه قال تعالى : « من يطع الرسول فقد اطاع الله » (١) وقال تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(٢) « فدلت الآيات على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يامر به وينهى عنه ، دون تفريق بين السنة المبينة أو المؤكدة او المستقلة ، وهكذا كل أدلة القرآن تدل على أن ماجاء به الرسول وكل ما أمر به ونهى فهو لاحق فى الحكم بما جاء فى القرآن فلابد ان يكون زائدا عليه »(٣) كما وردت بعض الأحاديث الدالة على وجوب الأخذ بما فى السنة من الأحكام كما يؤخذ بما فى الكتاب مثل قوله صلى الله عليه وسلم « يوشك بأحدكم أن يقول هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال احللناه وما كان فيه من حرام حرمناه الا من بلغه عنى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسـوله والذى حدثه » (٤) .

وقد امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتبليغ أحكامه من اى طريق سواء كان بالكتاب أو غيره ، وعصمه من الخطأ فلا مانع من استقلال السنة بالتشريع .

واما قوله تعالى : « وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » (٥) فلا تفيد الآية قصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم على البيان ، بل يستفاد منها ومن قوله تعـالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أن الرسول يبين للناس كتاب ربهم وإذا جاوز البيان الى الأحكام التى لم يتعرض لها القرآن فانه حينئذ لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى » وقد صرح بذلك بعض علماء السلف فمن ذلك ما يروى عن عبد الرحمن بن يزيد انه

---

(١) سورة النساء (٨٠) .
(٢) سورة الحشر (٧) .
(٣) الموافقات (٤ : ١٣) .
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .
(٥) سورة النحل (٤٤) .

رأى محرما عليه ثيابه فنهاه فقال : ائتنى بآية من كتاب الله تنزع ثيابى فقرأ عليه « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »(١) .

أدلة المنكرين الاستقلال :

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بأن السنة بيان للقرآن ، كما قال تعالى : « **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** » **وأجابوا عن أدلة القائلين** باستقلال السنة بأن الآيات التى تفيد وجوب طاعة الرسول يقصد منها وجوب طاعته فى بيانه وشرحه « ولا يلزم من افراد الطاعنين تباين المطاع فيه باطلاق فلا دليل فيها على أن ما فى السنه ليس فى الكتاب ، واذا كانت هناك أحكام زائدة فليست بزائدة بزيادة شىء ليس فى القرآن بل زيادة الشرح على المشروح »(٢) وعلى هذا الرأى تكون الأحكام الواردة فى السنة اشتمل القرآن عليها بطريق الاجمال فصح أن تكون السنة بيانا للقرآن عن طريق الالحاق أو القياس أو استنباط لقواعد العامة من الجزئيات أما الالحاق فقد ينص القرآن على حل شىء وحرمة شىء آخر ويكون هناك شىء ثالث لم ينص على حكمه وهو أخذ من كل منهما بطرف فيكون ثم مجال للاجتهاد فى الحاقه بأحدهما فبسط له النبى صلى الله عليه وسلم حكم احدهما ومثال ذلك : أن الله تعالى أحل صيد البحر فيما أحل من الطيبات وحرم الميتة فيما حرم من الخبائث فدارت ميتة البحر بين الطرفين واشكل حكمها فقال صلى الله عليه وسلم : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » (٣) وأما القياس فقد ينص القرآن على حكم شىء فيلحق به الرسول صلى الله عليه وسلم ما يشاركه فى العلة قياسا عليه ، ومثال ذلك أن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين ثم قال : « وأحل لكم ما وراء ذلكم »(٤) ثم جاء نهيه صلى الله عليه وسلم عن الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها

---

(١) جامع بيان العلم ج ٢ ص ١٨٩ ، الحديث والمحدثون ص ٤٤ .

(٢) السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٣٢ بتصرف يسير .

(٣) أخرجه أصحاب السنن : سنن أبى داود بتحقيق محمد محى الدين ج ١ ص ٢١ ، والترمذى ج ١ ص ٤٧ وقال هذا حديث حسن صحيح ورواه الامام مالك فى الموطأ ص ٤٣ ط المجلس الاعلى والدارمى ج ١ ص ١٥١ كلهم برواية أبى هريرة .

(٤) النساء (٢٤) .

من باب القياس كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**لا تنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى**))(١)
وأما طريق استنباط القواعد العامة من نصوص القرآن الجزئية فذلك بأن يأتى نصوص من القرآن فى معان مختلفة لكن يشملها معنى واحد فتأتى السنة بمقتضى ذلك المعنى الواحد فيعلم أنه مأخوذ من مجموع تلك النصوص ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ((انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى))(٢) فهاتان قاعدتان مأخوذتان من الآيات التى تحث على الاخلاص مثل قوله تعالى: ((**وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**)) (٣) وقوله تعالى: ((**ألا لله الدين الخالص**)) (٤) وقوله تعالى : ((**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**)) (٥) .

ويمكن الجمع بين ما ذهب اليه الفريقان بأن الجميع متفقون على وجود أحكام فى السنة لم ينص عليها فى القرآن ولكن القائلين بأن السنة لاتأتى بأحكام زائدة عما فى القرآن أرادوا أن القرآن اشتمل على جميع الأحكام اجمالا أو تفصيلا فعلى رأيهم أن الأحكام داخلة تحت النصوص من الوجوه ، **وأما القائلون بأنها تأتى بأحكام** زائدة فأرادوا بذلك الأحكام التفصيلية التى لم يرد فيها نص صريح فعلى رأيهم أن السنة تستقل بالتشريع لأنها اثبتت أحكاما جديدة ، فكل واحد من الفريقين متفق على وجود أحكام زائدة عما فى القرآن وانما الخلاف فى مخرجها فالخلاف اذا لفظى لأن النتيجة واحدة وهى وجود أحكام جديدة سواء سمى ذلك استقلالا أم لا (٦) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٢ ص ٥٦٢ ، الموطأ ص ١٧٧ ، الام ج ٥ ص ٤ ، نيل الاوطار ج ٦ ص ٢٨٥ سنن أبى داود ج ٢ ص ٢٢٤ ،جامع الترمذى ج ٢ ص ٢٩٧ وقال : حديث حسن صحيح ، وابن حبان بزيادة فانكم اذا فعلتم قطعتم أرحامكم وهو المعنى الذى حرم الجمع بسببه .

(٢) فتح البارى ج ١ ص ٩ المسند ج ١ ص ٣٠٢ ورواه مسلم ج ٦ ص ٤٨ والترمذى ج ٦ ص ٤٨ وهو حديث حسن صحيح .

(٣) البينة ((٥)) .

(٤) الزمر ((٣)) .

(٥) الكهف ((١١٠)) .

(٦) الحديث والمحدثون ص ٤٥ السنة ومكانتها فى التشريع ص ٤٢٣ .

بيان السنة في غير الأحكام :

وهناك طائفة من الأحاديث النبوية جاءت على سبيل العظة وتنبيه المكلفين وهدايتهم وخرجت مخرج القصص ، منها ما جاء موافقا ومؤكدا لما في القرآن ولا يخلو من بعض الشرح كحديث الخضر مع موسى عليه السلام الذى رواه سفيان عن عمرو عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس : ان نوفا البكالى يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى اسرائيل ؟ فقال ابن عباس : كذب عدو الله ، أخبرنى ابى بن كعب قال : خطبنا رسول الله .. » وذكر حديث موسى والخضر بشىء يدل على أن موسى صاحب الخضر » (١) أ هـ — فهذا الحديث يوافق القصة المذكورة عنهما فى سورة الكهف .

ومنها ما ورد على سبيل التوضيح كقوله عليه الصلاة والسلام « يدعى (٢) نوح فيقال هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال من شهودك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال : فيؤتى بكم تشهدون أنه قد بلغ فذلك قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »(٣)

ومنها ما يرد على طريق الاستقلال ومن أمثلته : « حديث جريج العابد وحديث الأبرص والأقرع والأعمى » « حديث الصخرة » فهذه الأحاديث وما فى معناها جاءت لتأكيد المقاصد التى جاء بها القرآن ، وحكمتها تنشيط المكلفين وتنبيه الغافلين » (٤) . أ هـ

---

(١) الرسالة للامام الشافعى ص ٤٤٢ ، ورواه البخارى ج ١ ص ١٩٧ من مسح الباب ، ورواه مسلم ج ٢ ص ٢٢٧ من طريق سفيان بن عيينه .
(٢) أخرجه البخارى والترمذى .
(٣) سورة البقرة « ١٤٣ » .
(٤) الحديث والمحدثون ص ٤٥ .

حول حجية السنة

من المباحث السابقة تتضح حجية السنة وحيث ان الله تعالى أمر بوجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين أنه الذى يبين للناس ما نزل اليهم ، قال تعالى : ((**وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**))(١) وقال تعالى : ((**قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين**))(٢) .

فقد جعل سبحانه التولى عن طاعة الله ، وعن طاعة الرسول كفرا ، لأن من أركان الايمان بالله الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، والايمان بأن كل ما أتى به صدق . **وعن عمران بن حصين أنه قال لرجل : ((انك امرؤ أحمق ، أتجد فى كتاب الله الظهر أربعا لا يجهر فيها بالقراءة ثم عدد عليه الصلاة والزكاة ونحو هذا ،** ثم قال : **أتجد ذلك فى كتاب الله مفسرا ؟ ان كتاب الله أبهم هذا ، وان** السنة تفسر ذلك)) . من كل **ذلك يتأكد لنا حجية السنة .**

رد بعض الشبه والطعون :

١ — ذهب بعض أصحاب الآراء الجامحة من الفرق والطوائف الى انكار حجية السنة جملة متواترة كانت أو آحادا مستندين فى

---

(١) سورة النحل « ٤٤ » .
(٢) سورة آل عمران « ٣٢ » .

ذلك الى فهمهم السقيم فى مثل قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » (١) وقوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » (٢) واصل هذا الرأى الفاسد — وهو رد السنة والاقتصار على القرآن أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا الى انكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن (٣) ونسبوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فأنا قلته ، وما خالفه فلم اقله » (٤) كما استدلوا على عدم حجيتها ايضا : بنهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن كتابة السنة وأمره بمحو ما كتب منها .

والاجابة على هذه الشبه تتلخص فيما يأتى :

أولا : ان قوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » فالمراد والله أعلم أن الكتاب يبين امور الدين بالنص الذى ورد فيه، او بالاحالة على السنة التى تولت بيانه ، و لا فلو لم يكن الأمر كذلك لتناقضت هذه الآية مع قوله تعالى : **« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »** .

ثانيا : وأما قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » فالكتاب هو اللوح المحفوظ بدليل السياق (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم) وعلى تقدير انه القرآن فالمعنى انه يحتوى على كل أمور الدين اما بالنص الصريح واما ببيان السنة له.

ثالثا : وأما الحديث الذى نسبوه الى النبى والذى زعموا — حسب ادعائهم — أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب فقد قال فيه الامام الشافعى رحمه الله تعالى : « ماروى هذا احد يثبت حديثه

---

(١) سورة النحل « ٨٩ » .
(٢) سورة الانعام « ٣٨ » .
(٣) مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة .
(٤) لم يرد بهذا المعنى حديث صحيح ولا حسن ، « وفى عون المعبود » . (٤ : ٣٢٩) فأما ما رواه بعضهم أنه قال : « اذا جاءكم الحديث .. الخ فانه حديث باطل لا أصل له .

في شيء صغير ولا كبير ... » (١) وذكر أئمة الحديث أنه موضوع الزنادقة قال عبد الرحمن بن مهدي : « الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث وهذه الألفاظ لا تصح عنه صلى الله عليه وسلم عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم وقالوا نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ونعتمد على ذلك قالوا فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله ، لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ماوافق كتاب الله بل وجدنا كتاب الله يطلق التأسي به والأمر بطاعته ويحذر من المخالفة عن أمره جملة على كل حال » (٢) .

رابعا : وأما نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن تدوين السنة فلا يدل على حجيتها لأن المصلحة يومئذ كانت تقضي بتضافر كتاب الصحابة — وهم قلة — على جمع القرآن الكريم وتدوينه وحفظه أولا خشية الضياع وخشية أن يلتبس بغيره على البعض فنهاهم عن تدوين السنة حتى لا يكون تدوينها شاغلا لهم عن القرآن أو أن النهي كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه .

وأخيرا فكيف يترك الاحتجاج بالسنة اقتصارا على القرآن ؟ ولا سبيل الى فهم القرآن الا عن طريق السنة الصحيحة التي بها يعلم المفسر أسباب النزول والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التي نزلت فيها آيات القرآن الكريم ولا سبيل الى معرفة كل ذلك الا عن طريق السنة الصحيحة .

٢ — الرد على من ينكر الاحتجاج بخبر الواحد :

من الحديث ما هو متواتر ومنه ما هو آحاد ؛ أما الحديث المتواتر فقد عرفه العلماء بأنه (هو ما نقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة بأن يكونوا جمعا لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول

---

(١) الرسالة للامام الشافعي ص ٢٢٥ .
(٢) جامع بيان العلم وفضله ٢ : ١٩٠ .

الاسناد الى آخره) (١) ولذا كان مفيدا للعلم الضرورى وهو الذى يضطر اليه الانسان بحيث لا يمكنه دفعه ويجب العمل به من غير بحث عن رجاله ولا يشترط فيه عدد معين فى الأصح (٢) .

الخبر الذى لم تبلغ نقلته فى الكثرة مبلغ الخبر المتواتر سواء كان المخبر واحد أو اثنين أو ثلاثة أو اربعة أو خمسة الى غير ذلك من الاعداد التى لا يشعر بأن الخبر دخل بها فى حيز المتواتر » (٣) وقيل فى تعريفه : هو ما لم يوجد فيه شروط المتواتر سواء كان الراوى له واحدا او أكثر(٤) . والتعريفان يتفقان فى أن خبر الواحد لا تجتمع فيه شروط المتواتر ، فهما متقاربان .

وقد اتفق جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم على وجوب العمل بخبر الواحد وأنه حجة ، ويفيد الظن ومنع من وجوب العمل به بعض طوائف : كالروافض والقدرية ، والجبائى فى جماعة من المتكلمين .

والدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ما يأتى :

أولا : قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين »(٥) والنبأ هو الخبر ، وهو نكرة فى سياق الشرط فيعم كل خبر ، ويدخل فيه الخبر الذى يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم قبل غيره لأهميته . وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق ، فاذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلا قبل الخبر من غير تثبت ولا توقف . .

ثانيا : ورد فى السنة الشريفة ما يدل على قبول خبر الواحد ،

---

(١) تدريب الراوى ص ٣٧١ .
(٢) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٤٦ .
(٣) توجيه النظر ص ٣٣ .
(٤) قواعد التحديث ص ١٤٧ .
(٥) سورة الحجرات آية (٦) .

من ذلك ما روى عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((**نضر الله عبداً سمع مقالتى ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه ، ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله والنصيحة للمسلمين ولزوم جماعتهم ، فان دعوتهم تحيط من وراءهم**))(١) .

وفى هذا الحديث يدعو الرسول صلى الله عليه وسلم لاستماع مقالته وادائها ويدعو بالنضرة للقائم بذلك فيقول : (نضر الله عبدا) وفى رواية (امرءا) ، وكل واحدة من الكلمتين بمعنى (الواحد) ، والرسول لا يأمر أن يؤدى عنه الا الذى تقوم به الحجة، فدل ذلك على وجوب العمل بخبر الآحاد .

وقد تواتر عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه كان يبعث بكتبه ورسله ويلزم المسلمين العمل بالآحاد منها .

ثالثا : اجماع الصحابة المستفاد من الوقائع الكثيرة التى كانت تحدث ، وتتواتر عنهم فى العمل بخبر الواحد ، وكثيرا ما يكون لهم رأى فى أمر من الامور فاذا جاءهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اخذوا به وتركوا آراءهم ، كما كانوا يرجعون الى بيت النبوة فى بعض ما يحتاجون اليه فيسألون أمهات المؤمنين رغبة منهم فى الوقوف على حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الامور ، وعلى هذاالنهج سار التابعون من بعدهم (٢) .

ومما يشهد للعمل بخبر الواحد أن الصحابة كانوا يكتفون به فيما ينزل من أحكام الدين ولا يطلبون خبرا آخر من ذلك ما روى عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : (بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح اذ جاءهم آت ، فقال : ان النبى قد أنزل عليه الليلة

---

(١) رواه أحمد ج ١ ص ٤٣٦ عن زيد بن ثابت ، والترمذى ج ٤ ص ١٤٢ عن عبد الله ابن مسعود عن أبيه بلفظ (نضر الله امرءا ..) وقال : حديث حسن صحيح : والدارمى بنحوه ج ١ ص ٦٥ .

(٢) مكانة السنة فى الاسلام الدكتور محمد أبو زهو ص ٢١ .

قرآن ، وقد أمر أن يستقبل القبلة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم الى الشام فاستداروا الى الكعبة)(١) فقد أخبرهم بتحويل القبلة واحد صادق فلو لم يكن خبر الواحد جائزا لما تحولوا الى الكعبة بخبره .

رد بعض الاعتراضات :

١ — وقد يعترض على العمل بخبر الواحد ، بتوقف بعض الصحابة فى العمل به وطلبهم شاهدا أو يمينا .

والجواب على ذلك : ان هذا كله لم يكن لأن الحديث خبر آحاد ، وانما لزيادة التثبت فى الراوى والمروى وشدة الحيطة فى ذلك ، فربما وقع لهم الريب فى الراوى بأن كان غير حافظ أو غير ضابط ، فطلبوا الشاهد أو اليمين لذلك .

٢ — وقد يعترض كذلك بأن الصحابة لم يكثروا من رواية السنة وقصروا العمل على القرآن والمشهور من الاحاديث ، واجتهدوا بالرأى بعد ذلك .

والجواب على ذلك : انهم ماتركوا الحديث الصحيح ولا لجأوا الى الرأى ، وتشهد بذلك الوقائع الكثيرة المأثورة عنهم بل ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول : (اياكم والرأى فان أصحاب الرأى أعداء السنن أعيتهم الأحاديث أن يعوها ، وتفلتت منهم أن يحفظوها فقالوا فى الدين برأيهم)(٢) .

وأما ما جاء عن الصحابة من الاجتهاد بالرأى ، فانه لم يكن الا بعد البحث عن الحديث ، فاذا لم يجدوه اجتهدوا برأيهم ، فاذا جاءهم بعد ذلك حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعوه وتركوا الرأى . **وعن عبد الله بن مسعود قال : (من عرض له منكم قضاء فليقض بما فى كتاب الله فان لم يكن فى كتاب الله فليقض بما قضى**

---

(١) الموطأ ص ١٥٦ ، فتح البارى ج ١ ص ٤٢٤ ورواه مسلم من طريق مالك ج ١ ص ١٤٨ وأحمد ج ٢ ص ١١٣ والشافعى فى الام ج ١ ص ٨١ .

(٢) اعلام الموقعين ج ١ ص ٤٦ ط المنيرية .

فيه نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض فيه نبيه صلى الله عليه وسلم ، فليقض بما قضى به الصالحون فان جاء أمر ليس فى كتاب الله ولم يقض به نبيه ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه فان لم يحسن فليقم ولا يستحى)(١) .

شروط العمل بخبر الواحد :

اشترط العلماء فى قبول خبر الواحد ووجوب العمل به شروطا كفلت الاحتجاج به والعمل بما فيه ، وبهذه الشروط اندفعت الشبه التى أثارها المشككون حول الحديث واصبح لا مجال لطعنهم وقولهم : (ان الراوى يجوز عليه الكذب أو الغلط مع احتمال الصدق فثبوت الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم غير مقطوع به) لا مجال لمثل هذا القول فان الشروط التى اشترطها الائمة والعلماء كانت كافية فى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب ، وهذه الشروط منها ما هو فى راوى الحديث ، ومنها ما هو فى متن الحديث .

اما الشروط الخاصة براوى الحديث : فهى :

١ — العدالة .

٢ — الضبط .

٣ — أن يكون فقيها .

٤ — أن يعمل الراوى بما يوافق الخبر ولا يخالفه .

٥ — أن يؤدى الحديث بحروفه .

٦ — أن يكون عالما بما يحيل معانى الحديث من اللفظ .

الشروط الخاصة بالحديث : هى :

١ — أن يكون متصل السند برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٣ .

٢ ــ خلوه من الشذوذ والعلة .

٣ ــ الا يخالف السنة المشهورة قولية كانت أو فعلية .

٤ ــ ألا يخالف ما كان عليه الصحابة والتابعون والا يخالف عموم الكتاب او ظاهره .

٥ ــ الا يكون بعض السلف قد طعن فيه .

٦ ــ الا يشتمل الحديث على زيادة فى المتن أو السند انفرد بها راوية عن الثقات وكذا احتاط العلماء فى قبول خبر الواحد فاشترطوا له الشروط الكافية ووضعوا لراويه الصفات اللازمة التى تجمع بين الثقة فى الدين والصدق فى الحديث . **قال الخطيب : ((وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين فى سائر أمصار المسلمين** الى وقتنا هذا **ولم يبلغنا عن أحد منهم أنكار لذلك ولا اعتراض عليه))(١) .**

---

(١) الكفاية فى علم الرواية للخطيب البغدادى ص ٧٢ ط مطبعة السعادة .

الأطوار التي مرت بها السُّنة في القرنين الأول والثاني

رواية السنة وكتابتها ، وتدوينها وتصنيفها :

العهد النبوى :

اصطفى الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه ليبلغ الرسالة الالهية الى النــاس جميعــا ، ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، واعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم اعدادا كاملا فرباه بعنايته ، وكلأه برعايته وعصمه من الناس وعلمه ما لم يكن يعلم ، قال تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، وما يضلون الا انفسهم وما يضرونك من شيء وانزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »(١) .

وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بأداء الرسالة خير قيام ، وأدى الامانة الالهية على أكمل وجه وتحمل فى سبيلها ما تحمل وصبر وأستعذب الأذى حتى أرسى دعائم الدعوة وأقام دين الله تعالى . وقد تضافرت عوامل ثلاثة حفزت همم المسلمين الى الاقبال الشديد على السنة الشريفة ومدارستها :

---

(١) سورة النساء « ١١٣ » .

اولا : القدوة الحسنة التى تمثلت فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »(١) .

ثانيا : ما تضمنته آيات القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من الحث على العلم والعمل ، بل كانت أولى آيات الوحى الالهى من القرآن دعوة صريحة الى العلم ، توجه **أنظار البشرية اليه ، وتحض عليه ، قال تعالى : ((اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذىعلم بالقلم علم الانسان مالم يعلم)(٢) .**

وقال تعالى : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)(٣) ، كما حض الرسول صلى الله عليه وسلم على طلب العلم وتبليغه ، عن ابن شهاب قال : قال حميد بن عبد الرحمن سمعت معاوية خطيبا يقول سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله»(٤) « وقال صلى الله عليه وسلم (نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها واداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه الى من هو افقه منه »(٥) .

ثالثا : الاستعداد الفطرى ، والذوق العربى الأصيل والذاكرة الواعية الأمينة التى كانوا عليها ، وقد حركت هذه العوامل قلوب المسلمين للالتفاف حول رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، لينهلوا من معين سنته المطهرة التى وجدوا فيها مادة خصبة لدنياهم وأخراهم ، تكفل لهم سعادة الدارين ، لان احكامها الكريمة

---

(١) سورة الاحزاب « ٢١ » .
(٢) سورة العلق « ١ — ٥ » .
(٣) سورة التوبة (١٢٢) .
(٤) فتح البارى ج ١ ص ١٥٠ ، ١٥١ والمسند عن أبى هريرة حـ ١٢ ص ١٨٠ ورواه ابن ماجه ج ١ ص ٤٩ ومجمع الزوائد (١ : ١٢١) .
(٥) الحديث ، سبق تخريجه ص ٢٧ .

وآدابها الفاضلة تتعلق بالعقيدة والشريعة والأخلاق وتتعلق بجميع آدابهم وأحوالهم .

ونهج النبى صلى الله عليه وسلم معهم منهج القرآن ، بتدرج فى انتزاع الشر والباطل ، ويعمل على غرس الخير والحق ، ويفتيهم فى مسائلهم فى كل مكان حسبما اتفق فى الحل والترحال . وكان « المسجد » هو المكان المتعارف الذى تعاهدوا على حضور المجالس العلمية فيه ، تلك المجالس التى يعقدها لهم رسولهم صلى الله عليه وسلم تشرق بنور الله ، وتنبثق منها الروحانية الصافية ، فيتعلمون ويتفقهون ويعبدون فيها ربهم ويسبحون بالغدو والآصال . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبع معهم أسمى الطرق فى التعليم : فيتخولهم بالموعظة كراهة السآمة عليهم ويتوخى مخاطبتهم بلغاتهم ولهجاتهم وعلى قدر عقولهم متواضعا حليما ، ولم يحرم النساء من حقوقهن فى العلم وانما خصص لهن وقتا يتلقين فيه العلم.

وقد بلغ من حرصه صلى الله عليه وسلم على تعليم المسلمين انه كان يكرر القول ثلاثا حتى يفهم عنه ، وربما طرح المسألة على اصحابه(١) ليختبر أفهامهم ، ويجذب انتباههم ، ويتحرى ان يكون التدريس والموعظة فى الوقت الملائم والظروف المناسبة التى يتمنى لهم الحضور فيها ، وتكون عقولهم يقظة وواعية بعد صلاة الفجر وبعد العشاء ونحو ذلك ...

تلقى الصحابة الحديث النبوى :

حرص الرسول صلوات الله وسلامه عليه على تبليغ المسلمين سنته الشريفة وحبب الى أصحابه رضوان الله عليهم حفظ الحديث وتبليغه ، فوضع منهج التلقى والتحديث ، وأرسى بينهم قاعدة التثبت العلمى التى ساروا عليها ، واتخذوها منهجا فى الرواية بعد ذلك ، وسار الصحابة فى حرصهم على حضور مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم الى جانب ما يقومون به من أمور المعاش واذا تعذر على بعضهم الحضور يتناوب مع غيره كما كان يفعل عمر رضى الله عنه ، قال : « كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد وهى من عوالى المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ١٣٦ .

الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وانزل يوما فاذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره واذا نزل فعل مثل ذلك »(١) . ولم يكن يتسنى للجميع سماع الحديث من الرسول صلى الله عليه وسلم لما كانوا يقومون به من أعمال فكانوا يطلبون ما يفوتهم سماعه من اقرانهم وكانوا يتشددون على من يسمعون منه ، كما كانت القبائل البعيدة تبعث الى النبى صلى الله عليه وسلم من يتعلم أحكام الدين منه ثم يعود اليهم ليرشدهم ويعلمهم ، وهكذا عاش الصحابة مع رسولهم صلى الله عليه وسلم يشاهدون تصرفاته فى عباداته ومعاملاته واذا عن لهم أمر من الأمور يحتاجون للبيان فيه رجعوا اليه يسألونه فيجيبهم ، ويفتيهم ، كما كان صلى الله عليه وسلم يعلم النساء أمور الدين ويخصص وقتا يجلس لهن فيه وكانت امهات المؤمنين على درجة سامية من العلم ، لذا وجد النساء عندهن الاجابة على امورهن وأحوالهن التى يمنعهن الحياء من التصريح بها أمام الرسول عليه الصلاة والسلام كالأمور الخاصة بهن والى جانب هذه العوامل السابقة كانت هناك طرق كثيرة ساعدت على انتشار السنة قوى نشاطها اجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى التبليغ وأثر أمهات المؤمنين الذى لا ينكر ، ومن ذلك بعوثه صلوات الله وسلامه عليه الى القبائل لتعليمهم وارشادهم ، وكتبه الى الملوك يدعوهم الى الاسلام ، كما كان لغزوة الفتح اثر كبير فى نشر كثير من السنن حيث قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا بين الوفد المسلمين وغيرهم معلنا العفو عن أعدائه ومبينا كثيرا من الأحكام التى تناقلها الناس وحملوا توجيهه وارشاده الى أهلهم . وبعد أن استتب الأمر يمم النبى صلى الله عليه وسلم وجهه شطر المسجد الحرام حاجا ومعه الوفد من المسلمين التقى فيهم خطبته الجامعة(١) التى تعتبر

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٣٣٤ ط الشعب .

منهاجا ختاميا للدعوة الاسلامية تضمنت كثيرا من الاحكام والسنن وفيها بين الرسول صلى الله عليه وسلم مناسك الحج ووضع من آثار الجاهلية ما أبطله الاسلام ، فكانت من أعظم عوامل انتشار السنة بين كثير من القبائل والعشائر .

ومعلوم أن الصحابة رضى الله عنهم لم يكونوا فى مستوى واحد من العلم بل كانت تتفاوت درجاتهم العلمية ما بين مكثر ومقل ومتوسط تبعا لظروف كل واحد منهم ، اذ كان من بينهم البدوى والحضرى ، والمنقطع للعبادة ، والمشتغل بأمر المعاش فكان اكثرهم علما أسبقهم اسلاما كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود ، أو أكثرهم ملازمة لنبيه صلى الله عليه وسلم كأبى هريرة ، أو اكثرهم كتابة كعبد الله بن عمرو بن العاص .

ولكن السمات العامة للمسلمين آنئذ تبرز لنا الدوافع القوية التى حفزتهم على تلقى السنة النبوية حتى أودعوها حوافظهم القوية وصدورهم الامينة مما جعل السنة الشريفة محفوظة جنبا الى جنب مع القرآن ، وتلك الدوافع هى اقتداؤهم بنبيهم واستعدادهم الفطرى واستجابتهم للقرآن والسنة .

السُّنة فى عصر الصحابة والتابعين

انتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه الى الرفيق الأعلى ولم يترك وصية لمن يتولى الخلافة من بعده مكتفيا بتعاليمه الشريفة التى تضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، وقد أكمل الله لهم الدين واتم عليهم النعمة قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)(١) وقد تمثلت سعادتهم فى الأصلين الكريمين : الكتاب والسنة فحرصوا على حفظهما وحراستهما . ولا خوف على التراث النبوى فى ظل الحياة المستقرة الآمنة ما دام بعيدا عن اعداء الدعوة وأهل الأهواء ، اما حين تضطرب الحياة وتظهر العداوة والبغضاء والفتن والأهواء فحينئذ يخشى على التراث النبوى أن تمتد اليه أيدى من مردوا على البغى والعدوان .

وقد كان أول اهتزاز يخشى منه اضطراب الدولة الاسلامية ويشب بين المسلمين الخلاف من جرائه هو مسألة الخلافة بعد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فقد اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يكون خليفة ، واجتمعوا فى السقيفة وبعد محاورة بينهم ومناقشة تداركهم الله بفضل منه ، فانحسم الأمر وتمت البيعة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان على الصديق أن يباشر مهام خلافته ، وكانت أولى مسئولياته الضخمة التى واجهته تلك

---

(١) سورة المائدة « ٣ » .

الحركة المتمردة العنيفة التى تمثلت فى المرتدين ومانعى الزكاة وهى حركة لو قوبلت بلين وهوادة لهددت الدعوة وكانت خطرا جسيما على المسلمين لذا نشط الصديق فى مقاومتها من أول يوم وتأهب للقتال واعد عدته ، ونازلهم حتى أصاخوا لحكم ربهم واستجابوا لأبى بكر رضوان الله تعالى عليه فدخلوا الاسلام وادوا الزكاة فانتظم أمر الدعوة واستقرت الأمور وعادت الحياة آمنة ، وصفا الجو العلمى للصحابة فاستكمل صغارهم علومهم ومعارفهم كما ارادوا ، ونهل التابعون من علوم الصحابة التى حملتها اليهم صدورهم الأمينة وحوافظهم القوية وبعض صحائفهم العزيزة التى كانت تشكل روافد صافية الى منابع السنة الشريفة .

وهكذا سارت الحياة رخاء طيبة ، فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما حتى كانت الخلافات التى بدأت تبرق شررها حين أخذ الناس على سيدنا عثمان رضى الله عنه بعض الأمور ، ومن ذلك الوقت تسربت الفتنة بين الناس وتولى كبرها عبد الله ابن سبأ اليهودى ، حتى انتهت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، ومن هنا بدأت تستعر نار الفتنة التى اطاحت بكثير من الصحابة .

ووسط هذا الجو الملبد الخانق تولى الامام على رضى الله عنه الخلافة فكان أول صدام واجهه على اثر مطالبة معاوية بدم عثمان — تلك المعارك التى أصابت سير الحياة بهزات عنيفة وفرقت المسلمين ، ((وانتهت بمعركة صفين التى كان على أثرها تفرق أصحاب على الى خوارج وشيعة))(١) .

أما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى وقد قرروا أنها حق لعلى بن أبى طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده .

وأما الخوارج فهم من أشياع على بن أبى طالب الذين خرجوا عليه بعد التحكيم(٢) ثم صاروا حربا عليه وعلى جماعة المسلمين

---

(١) الحديث والمحدثون ص ٦٥ .

(٢) تاريخ الاسلام : حسن ابراهيم جـ ٢ ص ١ ، ٢

من بعده وقد قضى عليهم المهلب بن أبى صفرة فى عهد الدولة الأموية ووسط هذا الانقسام ، وبين تلك الثورات العارمة والمعارك الدامية لابد أن يجد الأعداء وأصحاب الأهواء الطريق ممهدة لهم فاستغل اليهود والفرس وأعداء الدعوة تلك الفرصة السانحة ليكيدوا للاسلام ويناهضوا ببغيهم وعدوانهم التراث النبوى ليدسوا ويضعوا ، فماذا نرى يفعل الصحابة ؟!

منهج الصحابة فى الرواية :

لم يكن هناك مجال للخلاف فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا خوف على السنة الشريفة ، لان الصحابة كانوا اذا ظهر بينهم خلاف فى مسألة من المسائل يرجعون الى النبى صلى الله عليه وسلم واذا عن لهم أمر يسألونه فيه . فلما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى خيف العبث بالسنة ، خصوصا والحديث لم يدون بعد فى كتاب ، والاسلام تتسع رقعته يوما بعد يوم ويدخل فيه الكثير وفيهم من لا يؤمن جانبهم على الدين من المنافقين ونحوهم لذا كان من الضرورى أن يتثبت الصحابة فى سنة نبيهم الذى وضع لهم الاساس الأول فى قاعدة التثبت فبنوا عليها منهجهم فى الرواية وذلك بما بينه لهم عليه الصلاة والسلام من خطر الكذب عليه حين قال **(من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)**(١) وقال **((من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين))**(٢) وكان أول من وضع قوانين الرواية فيهم أبو بكر الصديق رضوان الله تعالى عليه وتبعه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسائر الصحابة ، ويتلخص منهجهم فى أنهم اقلوا من رواية الحديث كراهية أن يشتغل الناس برواية الحديث وينصرفوا عن

---

(١) رواه البخارى ج ١ ص ١٧٩ فى فتح البارى بلفظ (من كذب على فليتبوأ مقعده من النار رواه مسلم ج ١ ص ٥٥ ط الشعب عن أبى هريرة ، والترمذى ج ٤ ص ١٤٢ من حديث أبى ذر عن عبد الله وأخرجه من حديث الزهرى عن أنس ابن مالك وقال الترمذى حديث حسن غريب ، صحيح من هذا الوجه من حديث الزهرى عن أنس بن مالك ، والدارمى ج ١ ص ٦٦ عن جابر .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٥١ عن سمرة بن جندب وعن المغيرة بن شعبة ط الشعب ، والترمذى ج ٤ ص ١٤٢ عن المغيرة بن شعبة وقال حسن صحيح ورواه بن ماجه ج ١ ص ١٠ .

تلاوة القرآن ، وخشية الوقوع فى الخطأ أو تسرب التحريف الى السنة ، والاقلال من الرواية كان سيرا سليما على ما رسمه لهم نبيهم عليه الصلاة والسلام ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **« كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع »**(١) .

كما سار الصحابة على طريق التثبت من الراوى والمروى فما اطمأنوا اليه قبلوه وما لم يطمئنوا اليه طالبوا عليه شاهدا وما لم تقم البينة على صدقه ردوه وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمى الصحيح . ومنع الصحابة الرواة من أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة . لان فى هذا مدعاة الى تكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه ومدعاة للخطأ والارتياب فى الدين فامتنعوا عن ذلك خشية أن يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم .

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ابن عبد الله بن مسعود قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم الا كان لبعضهم فتنة »(٢) .

ومن أمثلة التثبت عند الصحابة ما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : « كنت فى مجلس من مجالس الانصار اذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال : استأذنت على عمر ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال : ما منعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع » فقال : والله لتقيمن عليه بينة ، أمنكم أحد سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبى بن كعب : والله لا يقوم معك الا أصغر القوم فكنت أصغر القوم وقمت معه فأخبرت عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك فقال عمر لأبى موسى أما انى لم أتهمك ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم(٣) .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ٦٠ ط الشعب .
(٢) صحيح مسلم شرح النووى ج ١ ص ٦٣ ط الشعب .
(٣) فتح البارى ج ١١ ص ٢٢ ، شرح الزرقانى على الموطأ ج ٤ ص ١٨٨ ، الرسالة ص ٤٣٥ برقم ١١٩٨ مختصرا .

وقد سار على سنة التثبت التابعون ومن جاء بعدهم وعنوا بالأسانيد والنقد العلمى الدقيق . ولما كان الصحابة متفاوتين فى العلم فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فقد بدأت الرحلات العلمية فقام الصحابة والتابعون بالرحلات الى كثير من البلاد حتى كان يتميز البعض بكثرة الرحلات والانتساب الى أكثر من بلد ، وكانت الرحلة سبيلا الى طلب الحديث وضبطه والتثبت منه .

كما كانت أيضا تدعيما لوحدة المسلمين وتعرفا على الجو العلمي فى شتى الأقطار الاسلامية ، ومعرفة والماما لطرق الحديث الكثيرة .

تدوين السنة

قام أعداء الاسلام يعملون فى ظلام الفرقة التى دبت بين المسلمين على أثر قتل الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضى الله عنه — حين افترق المسلمون فرقا وأحزابا ما بين شيعة وخوارج وجمهور وساعدهم على ذلك اتساع البلاد ، فوجدوا المناخ ملائما لبث سمومهم ودس أكاذيبهم ، وبعد أن انقضى عهد الخلافة الراشدة وافترق المسلمون الى فرق ، ظهر أرباب الكذب والنفاق من الملل الأخرى يكذبون ويلفقون ويصنعون الأحاديث ، فكان ظهور الوضع فى الحديث أهم هذه الأسباب التى حفزت همم العلماء لتدوينه وتصنيفه صيانة له من الأيدى العابثة ، يقول الامام الزهرى : « لولا أحاديث تأتينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثا ولا أذنت فى كتابته(١) .

ولم يكن ذلك الوقت الذى ازداد فيه نشاط العلماء فى الجمع والتدوين هو مبدأ زمن التدوين وانما بدأت كتابة الحديث منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم بصورة خاصة وغير رسمية فالسنة النبوية لم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد عمر بن عبد العزيز ، وانما كانت تكتب كتابة فردية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين وحفظت فى الكراريس والصحف بجانب حفظها فى الصدور ، حيث كانت توجد بعض الصحائف التى شاركت

---

(١) تقييد العلم ص ١١٨ .

الصدور فى حفظ السنة ومن هذه الصحائف صحيفة عبد الله بن عمرو بن العاص التى تسمى بالصادقة ، لأنه كتبها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص لمجاهد : « هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بينى وبينه أحد »(٢) .

وهي تشتمل على الف حديث(٢) وكان لسعد بن عبادة الأنصاري صحيفة ، ولسمرة بن جند صحيفة والصحيفة التي دونت فيها حقوق المهاجرين والأنصار واليهود وعرب المدينة ، وكان لجابر الأنصارى صحيفة ولأنس بن مالك صحيفة كان يبرزها اذ اجتمع الناس ولهمام بن منبه صحيفة تسمى الصحيفة الصحيحة رواها عن أبى هريرة وكان ابن عباس معروفا بطالب العلم وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .. كان يسأل الصحابة ويكتب عنهم وكانت تلك الصحف والمجاميع تحتوى على العدد الأكبر من الأحاديث التى دونت فى القرن الثالث .

يقول الأستاذ ابو الحسن الندوى فى كتابه « رجال الفكر والدعوة » : « واذا اجتمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث كونت العدد الأكبر من الأحاديث التى جمعت فى الجوامع والمساند والسنن فى القرن الثالث وهكذا يتحقق أن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه وتسجيله من غير نظام وترتيب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس حتى المثقفين والمؤلفين ان الحديث لم يكتب ولم يسجل الا فى القرن الثالث الهجرى واحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب ودون فى القرن الثانى وما نشأ هذا الغلط الا عن طريقتين :

الأولى : ان عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ولا يعنون بذكر هذه الصحف والمجاميع التى كتبت

---

(١) المحدث الفاصل ، وتقييد العلم ص ٨٤ .
(٢) أسد الغابة ٣/٢٣٣ .

فى القرن الأول لأن عامتها فقدت وضاعت مع أنها اندمجت وذابت فى المؤلفات المتأخرة .

الثانية : أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه المجاميع الصغيره التى كتبت من القرن الأول « أهـ »(١) .

ويقول العلامة مناظر أحسن الكيلانى متفقا مع الندوى فى كتابه (تدوين الحديث) (وقد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية فيقال أن أحمد بن حنبل كان يحفظ اكثر من سبعمائة الف حديث وكذلك يقال عن أبى زرعة ويروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى الف من الأحاديث الضعيفة ومائة الف من الأحاديث الصحيحة ويروى عن مسلم انه قال جمعت كتابى من ثلاثمائة الف حديث ولا يعرف كثير من المتعلمين فضلا عن العامة أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات والشواهد التى عنى بها المحدثون فحديث أنما الأعمال بالنيات يروى من سبعمائة طريق فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات والشواهد لبقى عدد قليل(٢) من الأحاديث ، وقد صرح الحاكم ابو عبد الله الذى يعتبر من المتسامحين المتوسعين أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى لا تبلغ عشرة آلاف »(٣) أهـ .

وأنا أرجح هذا الرأى وهو كتابة الحديث فى القرن الأول ، لأن اهل القرن الأول هم حلقة الاتصال بالنسبة لمن بعدهم من أصحاب القرون الثالثة الذين انتقلت على أيديهم السنة ، وأهل العهد الأول وأن كانت الأحاديث المدونة عنهم يظن انها قليلة الا أنها صحيحة كلها لا يداخلها شك ، اذ لم يكن الكذب أو الوضع قد شاع فيهم كالذين جاءوا من بعدهم فهم عدول وهم خير القرون وما من شك فيما كانوا عليه فى العهد الأول من المنزلة العالية فى الحفظ والضبط

---

(١) رجال الفكر والدعوة ص ٨٢ .

(٢) أى بالنسبة الى ضخامة عدد الأحاديث المروية فالقلة نسبية .

(٣) القرآن والنبى للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٣٧ ٢ ص ٣٣٨ نقلا عن « تدوين الحديث » .

وليس هذا غريبا على قوم انحدروا من أصلاب آباء كانوا قممــا عالية فى الحفظ والاتقان ، ولكن مع هذا فقد كتب بعضهم الأحاديث فكان وصولها الى القرون التالية شفاهة وتحريرا وهذا أدق وأوثق يقول : ابن الصلاح « ولولا تدوينه ــ أى الحديث ــ فى الكتب لدرس فى الأعصر الاخر »(١) .

ومنذ سنة اربعين من الهجرة بعد وقوع الفتنة وحرب الامام على ومعاوية دبت الخلافات السياسية والمذهبية وظهر الوضــع فى السنة النبوية من الذين لا ثقة فيهم ولا صحبة لهم حقيقية ، الا أن هــذه الحركة قوبلت بقوة مؤمنة من علماء السنة الذين حصروا الوضاعين وصانوا سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام ، سيرا على منهجه الكريم الذى وضعه لهم فى الحفاظ على السنة الشريفة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النـــار » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار »(٢) .

وقد وردت بعض أحاديث تنهى عن الكتابة : منها ماروا ه ابوسعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه »(٣) .

وعن ابى نضرة قال قيل لأبى سعيد لو اكتتبنا الحديث ؟ فقال لا نكتبكم ، خذوا عنا . كما أخذنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم(٤) .

---

(١) مقــدمة ابن الصلاح ص ٧١ .
(٢) فتح البـــارى ج ١ ص ١٨٠ عن ســـلمة بن الاكوع بلفظ « من يقل .. » وأخرجه أحمــد ج ٢ ص ٥٠١ عن أبى هريرة (بلفظ من قال) باسناد صحيح وابن ماجه ج ١ ص ١٠ من طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة ومسلم ج ١ ص ٥ والحــاكم ج ١ ص ١٠٢ والشـــافعى فى الرسالة ص ٣٩٦ والدارمى بنحـــوه ج ١ ص ٦٧ .
(٣) صحيح مســلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١٢٩ وكتاب جامع بيان العـــلم وفضـــله ج ١ ص ٧٦ ورواه الدارمى ج ١ ص ٩٨ .
(٤) جامع بيان العــلم وفضـــله ج ١ ص ٧٦ .

وهذا النهى عن كتابة الحديث كان فى بدء الدعوة خشية أن يختلط الحديث بالقرآن فيلتبس على بعض الناس ، أو أن النهى كان فى حق من يوثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة ولذا أذن بالكتابة لمن لا يوثق بحفظه كأبى شـــاه .

عن ابى هريرة رضى الله عنه : « أن خزاعة قتلوا رجلا من بنى ليث عام فتح مكة بقتيل منهم قتلوه فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فركب راحلته فخطب فقال : « ان الله حبس عن مكة القتل أو الفيل » ، قال أبو عبد الله : كذا ، قال أبو نعيم وسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون الا وانها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى ، الا وانها احلت لى ساعة من نهار ، الا وانها ساعتى هذه حرام لا يختلى شوكها ، ولا يعضد شجرها ، ولا يلتقط ساقطتها الا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظرين اما أن يعقل واما أن يقاد اهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن — هو أبو شاه فقال أكتب لى يا رسول الله ، فقال : اكتبوا لأبى فلان » رواه البخارى وأحمد وابن عبد البر .

والمراد كتابة الخطبة التى سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .. او ان النهى كان عاما وخص بالسماح له من كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال بين السنة والكتاب كعبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما ، قال أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « ما من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحد اكثر حديثا عنه منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب ولا أكتب » رواه البخارى والدارمى وابن عبد البر . كما كان للنهى عن الكتابة ثمرة عظيمة : هى اتساع المجال أمام القرآن الكريم حتى يأخذ مكانه فى الكتابة ويثبت فى صدور الحفاظ ، أو أن النهى كان خاصا بكتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة ، والاذن فى تفريقها . أو أن النهى كان متقدما ، فالاذن بالكتابة ناسخ له عند الأمن من الالتباس ، وهـــذا أقرب الآراء .

وممن روى عنه كراهة الكتابة فى الصـــدر الأول : عمرو بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى ، وأبو سعيد الخدرى ،

وممن روى عنه اباحة الكتابة أو فعله : على وابنه الحسن وأنس وعبد الله بن عمرو بن العاص .

(قال البلقيني : وفى المسألة مذهب ثالث وهو الكتابة والمحو بعد الحفظ(١)) وأرى أن النهى عن الكتابة كان عاما فى بادىء الأمر ، وخص الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة بالأذن فى الكتابة لأسباب منها : أن البعض لا يوثق بحفظه كأبى شاه ، ومنها أن البعض كان كاتبا مجيدا لا يلتبس عليه الحال كعبد الله بن عمرو ابن العاص ، فأنه كان قارئا للكتب المتقدمة ويكتب بالسريانية والعربية(٢) .

وظل النهى عن الكتابة قائما حتى كثرت السنن وخيف عليها أن تضيع من البعض فكان الاذن بالكتابة ناسخا لما تقدم من النهى ، ولم يلحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى الا وكتابة الحديث مأذون فيها .

وقد هم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكتابة الحديث واستشار أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأشاروا عليه ، فطفق يستخير الله فى ذلك مدة ثم عدل عن ذلك ، روى البيهقى فى المدخل عن عروة بن الزبير أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن ، فاستشار فى ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشاروا عليه أن يكتبها فطفق عمر يستخير الله فيها شهرا ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له وقال : انى كنت أردت أن أكتب السنن وانى ذكرته قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وانى والله لا البس .. كتاب الله بشىء ابدا(٣) .

واستمر حال السنة على هذا حتى انتشر الاسلام ، وتممت الفتوحات ، وتفرق الصحابة فى الأقطار ومات الكثير منهم ، فدعت

---

(١) تدريب الراوى ص ٢٨٥ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٦ .
(٣) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٢٢ ، تدريب الراوى ص ٢٨٧ ، تقييد العلم ص ٥٠ .

الحالة الى تدوين الحديث النبوى ، وذلك حين أفضت الخلافة الى الامام العادل عمر بن عبد العزيز ، فأراد أن يجمع السنن ويدونها مخافة أن يضيع منها شيء وكان ذلك على رأس المائة الأولى ، فكتب الى بعض علماء الأمصار يأمرهم أن يجمعوا الأحاديث ، كما كتب الى عماله فى أمهات المدن الاسلامية ، وهكذا أصدر الخليفة العادل أمره الى أقطار الاسلام : « انظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه(١) » .

وكتب الى أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ١١٧ هـ (اكتب الى بما يثبت عندك من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحديث عمرة فانى خشيت دروس العلم وذهابه) وفى رواية : (فانى خشيت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبل الا حديث النبى صلى الله عليه وسلم وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا(٢) .

كما أوصاه أن يكتب له بما عند القاسم بن محمد بن أبى بكر كما أمر ابن شهاب الزهرى — عام ١٢٤ هـ — وغيره بجمع السنن فكتبوها مستجيبين لأمر الخليفة الذى أشعل هممهم وصادف أمره فى نفوسهم الاستجابة والقبول وهكذا أتم الله على يد عمر بن عبد العزيز تنفيذ رغبة جده عمر بن الخطاب التى عدل عنها خشية التباس السنة بالقرآن الكريم .

وكان تدوين الامام الزهرى للسنة عبارة عن جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص ، فكان لكل باب من أبواب العلم مؤلف قائم به ، فكتاب للصلاة مثلا ، وآخر للصوم وهكذا وكل مؤلف من هذه المؤلفات تدون فيه الأحاديث المتصلة بموضوعه ، ومختلطة بأقوال الصحابة وفتاوى التابعيين ، وقد أخلص الامام الزهرى نيته وعمله لله وللرسول فى تدوين السنة والتنبيه على العناية بأساليبها .

---

(١) فتح البارى ج ١ ص ٢٠٤ .
(٢) المرجع السابق .

أما بعد الامام الزهري فقد تناول الأئمة رسالته ، وأخذوا يكملون ما أبداه ، فقد كان عمل الزهري بمثابة حجر الأساس لتدوين السنة في كتب خاصة ، ولكي يوضح الامام الزهري هذا العمل وبسلم أساس البناء للجيل الذي سيأتي بعده . كان يخرج لطلابه الأجزاء المكتوبة ليرووها عنه .

وفعلا فقد بدأ العمل بعدة ، وتعاون الأئمة والعلماء في المدن الاسلامية ، في مكة وفي المدينة وفي البصرة والكوفة والشام وخراسان واليمن ومصر وواسط والري ، واضطلع الأئمة من أمثال الامام ابن جريج ١٥٠ هـ بمكة ، والامام مالك ١٧٩ هـ بالمدينة ، والامام سفيان الثوري ١٦١ هـ بالكوفة وغيرهم بالمهمة الجليلة الملقاة على عاتقهم ، فأكملوا ما بداه الزهري ، الذي قام بالتدوين فجمع كل باب في مؤلف خاص كما سبق ، فجاء هؤلاء من بعده ، فجمعوا أحاديث كل باب من ابواب العلم على حدة ثم ضموا الأبواب بعضها الى بعض . فكانت مصنفا واحدا ، وخلطوا الأحاديث بأقوال الصحابة والتابعين .

أما ما جاء بعد هؤلاء الأئمة — من أهل عصرهم فقد سار على دربهم ، ونسج على منوالهم الى ان رأى بعض الأئمة افراد الحديث خاصة على رأس المائتين في أوائل القرن الثالث الهجري .. فألفت المسانيد ، ثم جاءت طبقة أخرى دونت السنة في كتب خاصة تحروا في تدوينها الصحيح على شروطهم ، وافردت الحديث عن غيره ، وجمعته على ابواب الفقه ، واختارت الرواة المشهورين بالثقة وبهذا يتضح أن تدوين السنة لم يأخذ وضعه في الظهور والتصنيف تماما الا في منتصف القرن الثاني في خلافة بني العباس ، وان كان قد بدأ قبل ذلك .

وكان لتدوين السنة على هذه المراحل اثره الجليل في حفظها من الدخيل ، ومن الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما كان لتدوين السنة على هذه المراحل أثره حيث سهل الطريق للاجتهاد والاستنباط .

بعد هذا كله أرى أن السنة النبوية كانت تكتب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وان وجدت بعض الاخبار بالنهى عن كتابتها ، فان اباحة الكتابة كانت جائزة للبعض ، وكانت آخر ما ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه عليه ، فلم يلحق بالرفيق الأعلى الا وكتابة الحديث مأذون فيها وقد حفظت فى الصحف بجانب حفظها فى الصدور ، ولم تبق مهملة طيلة القرن الأول الى عهد ابن عبدالعزيز ، وأحاديث الاذن بالكتابة أكبر شاهد على ذلك وهكذا كتبت الأحاديث وحفظ الكثير منها فى الصدور من لدن صدورها من الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن تلقتها الصدور الواعية ، والصحف الأمينة ، وتناقلتها جيلا بعد جيل الى ان تسلمها منهم اهل القرن الثالث ودونت الكتب الستة للأئمة : البخارى ومسلم وأبى داود ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجة جزاهم الله خير الجزاء عن السنة الشريفة .

نماذج من هدى الحديث النبوى

فى الصفحات التالية ، نقــدم بعض النماذج الطيبة من الأحاديث النبوية الشريفة ، ليقف القارىء على بعض العطاء الــكريم الذى تمنحه السنة الشريفة تصحيحا للمفاهيم الاسلامية ، وتزكيةالعلاقات الانسانية ، سيرا بالمجتمع الاسلامى نحو الوجهة الرشيدة .

وصدق الله تعالى فى قوله : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ..

الحلال والحرام

روى البخارى فى صحيحه قال : حدثنا أبونعيم قال حدثنا زكريا عن عامر قال سمعت النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ألا وان لكل ملك حمى ألا وان حمى الله محارمه ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

الشرح :

الاسلام دين العلم والعمل ، يدعو اتباعه لمعرفة أصوله وفروعه ، والوقوف على الظاهر منها والخفى ، حتى اذا ما جاء دور العمل كان منبعثا من نور وسائرا على هدى .. كما ينبه الى مستقر العقيدة فى الانسان ، ومصدر أعماله كلها وهو القلب .. فبصلاحه يتم اصلاح سائر الجسد ، وبفساده يكون فساد سائر الجسم .

وهذا الحديث يوضح بيان الحلال والحرام وما بينهما ، ويضع الضوابط الدقيقة لمنع أية شبهة تتسرب الى المال وغيره ، فالمال يمثل أقصى شهوات النفس البشرية ، ولهذا يأمر الله بتناول الحلال الطيب قبل ان يأمر بعمل الصالحات .

قال تعالى :

« كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » اذ كيف تقبل عبادة او يستجاب دعاء والمال من حرام ؟! قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله طيب لا يقبل الا طيبا ، وان الله أمر المؤمنين بما امر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم » وقال : « يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث اغبر يمد يديه الى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فانى يستجاب له ؟ .

والحديث الذى معنا يقطع طريق الريبة الى النفوس ، ويحد من اطماع المتلاعبين بالكسب والعمل ، او العابثين بشتى الوظائف الاجتماعية ، فيقرر حقيقة هى من الوضوح بمكان بحيث لا يغفلها أحد ، ولا تغيب عن ذهن عاقل :

« الحلال بين والحرام بين » انه واضح للخاصة والعامة ، معلوم من الدين بالضرورة أى لا يجهله أحد ما بداهة ، فلا شبهة فيه ولا غموض ومن أمثلة الحلال : أكل الطيب المباح ، وشرب الطيب المباح ولبس الاثواب المباحة ..

ومن امثلة الحرام : اكل الربا ، وشرب الخمر ، والسرقة وما الى ذلك ...

ومن رحمة الله بالانسان أنه يبين له الحلال من الحرام ، والطيب من الخبيث وتكفل سبحانه بشأن التحليل والتحريم عن طريق الوحى الالهى المعصوم ، فقال سبحانه : **« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء »** وقامت السنة الشريفة كمصدر ثان للتشريع بجوار القرآن في تفصيل ما اجمل ، وبيان ما يحتاج الى توضيح ، قال تعالى :

« وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم » .

قال العباس : **« والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ترك السبيل نهجا واضحا واحل الحلال وحرم الحرام »** قال تعالى **« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »** .

ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى بيان أمر ثالث : وهى الأمور المشتبهة ، « وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس » أى بين الحلال و الحرام أمور مشتبهة على كثير من الناس حكمها فلا يقطعون فيها برأى ولا يقفون على حكمها بالتعيين أتكون من الحلال ام لا ؟ والسبب فى هذا ، أنه يتنازعها دليل الحل فيظن أنها حلال ، ودليل الحرمة فيظن أنها حرام من جهة عموم الأدلة .

ولكن ما حكم مثل هذه الأمور ؟

ذهب بعض العلماء الى انها حرام ، وقال البعض : انها مكروهة وقيل : الوقف فلا يحكم فيها بحل ولا حرمة ، لأنها غير واضحة والذى نراه : هو الأخذ بالأحوط ، فبالنسبة لمن لم يقطع فى هذه الأمور برأى واضح الدليل فيعين عليه أن يسأل الراسخين فى العلم وهم القلة الذين أوتوا بصيرة مستنيرة ، وعقلية علمية راجحة ولديهم القدرة على الجمع بين الأدلة التى ظاهرها التعارض ، قال تعالى : **« ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »** ..

أما اذا اختلفت آراء العلماء باختلاف استظهار الأدلة فعلى المسلم أن يحتاط لدينه فيتوقف عن هذه الأمور ، ومن أمثلة ذلك فى عصرنا الحاضر ..

« فوائد صناديق التوفير » و « شهادات الاستثمار » وما يشبه ذلك من المعاملات الأخرى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى تتمة الحديث : **((فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه))** .

أى أن من حذر من الشبهات وتوقى الاقتراب من مواطنها فقد طلب البراءة وحصل عليها محافظ على دينه من النقص ، وعلى عرضه

من الطعن فيه ، وبهذا يفهم أن من اقترب من هذه الأمور فقد تعرض للطعن فيه ، فعلى المسلم أن يحافظ على أمور دينه ومروءته .

وفى الحديث : « انى لانقلب الى أهلى فأجد الثمرة ساقطة على فراشى فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها » .

وعلى العالم الا يفعل شيئا قد يكون ظاهره مدعاة لسوء الظن به حتى يبين وجه الحقيقة فيه ، وعلى الناس عامة ألا يعرضوا أنفسهم للقيل والقال ، بل عليهم اذا أحسوا بشىء من هذا القبيل أن يبينوه حتى لا تظن بهم الظنون .

وفى الصحيحين : أن صفية بنت حيى زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءت تزوره حين اعتكافه فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان ثم قامت فقام معها يودعها ، فمر بهما رجلان من الأنصار ورآياه واقفا معها ، فقال : على رسلكما انها صفية بنت حيى ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله : وهل نظن بك الا خيرا ؟؟

فقال : ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وقد خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا .

ثم يبين الحديث بعد ذلك مغبة ما يؤول اليه أمر هذه الأمور المشتبهة ، بأن من وقع فيها وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، فان فعل الشبهات يقرب من الحرام لأن الكثيرة منها تجعل صاحبها يصادف الحرام دون أن يشعر أو أن كثرة تعاطي الشبهات والتساهل في أمرها تجعله يجرؤ على الوقوع في الحرام .

وانما آثر التعبير بقوله « ومن وقع .. » دون أن يقول : « ومن فعل الشبهات » مثلا لينبه على أن تعاطي الحرام والوقوع فيه يكون نتيجة الاكثار من الشبهات والرغبة فيها حتى يسقط فلا يستطيع التخلي عنها وعندئذ يقع في الحرام .

واذا كان لكل ملك حمى يحميه عن الناس ، ويمنع أحدا ما أن يدخل فيه ومن دخله أوقع به العقوبة ، ومن أجل هذا لا يقاربه احد رهبة وخوفا ، واذا كان الحال كذلك فان حمى الله تعالى — وهي محارمه — أولى بالبعد عنها ، وأجدر الا يقربها الناس ، فالمعاصي من قتل أو زنا أو سرقة أو غيبة وغير ذلك كل هذا يمثل حمى الله من دخلها وارتكب شيئا منها كان موضع **غضب الله وعذابه ، قال تعالى : « .. تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » ..**

أما مستقر الصلاح في الانسان ، ومبعث الخير والبر فيه ، فهو القلب ، ولهذا يبرز الحديث أهميته كأساس في توجيه صاحبه الى الحلال ، والبعد عن الحرام ، فيقول : « ألا وان في الجسد مضغة .. » فالقلب السليم هو مركز الدائرة في الانسان ، ونظرة الاسلام الى القلب من أدق الحكم السامية فعليه مدار العمل كله قال تعالى : **« يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم »** بل ان الايمان نفسه لا يستقيم الا اذا كان التصديق نابعا من القلب السليم ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه » ..

وهكذا نرى ما لهذا الحديث من منزلة هامة فى الدين ، لدرجة أن قال جماعة : هو ثلث الاسلام وأن الاسلام يدور عليه وعلى حديث (الاعمال بالنية) والحديث **«من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه»** وقال ابو داود السخيتانى : يدور على أربعة احاديث هذه الثلاثة وحديث : **« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »** وقيل حديث **« ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد ما فى أيدى الناس يحبك الناس »** ، وقيل فى هذا .

عمــدة الدين عندنا كلمــات
مســـندات من قول خير البرية

اترك المشبهات وازهد ودع ما
ليس يعنيك واعملن بنيــة

صلة الرحم

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : ((**أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته**)) أخرجه الترمذى وأبو داود .

فى هذا الحديث القدسى ، الذى يرويه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه وتعالى ، توجيه حكيم ، يرشد المسلم الى جانب من أهم جوانب البر والاحسان ، وهو « صلة الرحم » وقد جاء التوجيه الالهى هنا بصورة حاسمة ، لا تحتمل التساهل فيها ولا التهاون فى لحظة من اللحظات ، فقد بين الله تعالى انه أخذ للرحم اسما من أسمه ، واشتقه من اسمه « الرحمن » فكان لها علاقة به ، وليس المعنى أنها من ذات الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقد أوجد الله تعالى الرحم وخلقها بقدرته وجعل اسمها مأخوذا من اسمه الذى يعنى الرحمة الواسعة الشاملة ، فهى مضافة اليه وفى كنفه ورعايته يتكفل سبحانه بثوابه واصلها وعقاب قاطعها ، ثم رتب الله سبحانه على ذلك أن من وصل رحمه بالبر والاحسان وصلة الله بالبر والاحسان فى الدنيا وفى الآخرة ، وأن من قطعها قطعه الله من رحمته واحسانه .

حكم صلة الرحم : وصلة الرحم واجبة ، وقطعها من الذنوب الكبيرة فقد ورد الوعيد بشأن قاطعها كما فى هذا الحديث وفى غيره : عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله

خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك واقطع من قطعك !

قالت : بنى يارب ، قال : فهو لك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **فاقرءوا ان شئتم (فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا ارحامكم)** رواه البخارى .

وقال القاضي عياض : لا خلاف أن صلة الرحم واجبة فى الجملة وقطيعها معصية كبيره . قال : والاحاديث فى الباب تشهد لذلك .
أنواعها : والرحم ثلاثة انواع :

١ — رحم عامة وهى رحم الدين

٢ — رحم خاصة وهم الأقارب .

٣ — رحم القريب غير المسلم .

فأما الرحم العامة : فتجب مواصلتها بالتواد والتناصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وما الى ذلك من الحقوق الواجبة والمندوبة .

وأما الرحم الخاصة : وهى التي يعنيها الحديث — فتكون صلتها بزيادة النفقة على الأقارب ، وتفقد احوالهم ، والتسامح معهم ، وقضاء حوائجهم وكل ما فيه نفع دينى أو دنيوى يعود عليهم .

وأما القريب غير المسلم : فقد أجاز الاسلام صلته والاحسان اليه للرحم التى يرتبط الانسان بها معه ، قال عمرو بن العاص : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم جهارا غير سر يقول : **« ان آل أبى ليسوا باوليائى انما وليى الله وصالح المؤمنين ، زاد عنبسة بن عبد الواحد عن بيان عن قيس عن عمرو بن العاص قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم : ولكن لهم رحم أبلها ببلالها يعنى أصلها بصلتها »** رواه البخارى .

وقال الله تعالى : ((**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين**(1))) روى عن الزبير بن العوام رضى الله عنه — فى سبب نزول هذه الآية قال : قدمت قتيلة على ابنتها اسماء بنت أبى بكر بهدايا ضباب وهو نوع من الحلوى — وقوط وسمن ، وهى مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : « لاينهاكم الله » الآية السابقة ، رواه أحمد وهذا الحكم هو ما عليه أكثر المفسرين وهو ما نميل اليه لما ورد من الحديث كذلك .

وجوه الصلة : ولصلة الرحم وجوه عديدة ، منها ما يكون بالمال ومنها ما يكون بتفقد أحوالهم ، وقضاء مصالحهم ، وهى ليست خاصة بمن يصلون المودة بل ان المسلم مطالب أن يصل جميع رحمه ، سواء أحسنوا اليه أم أساءوا عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ((**ليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى اذا قطعت رحمه وصلها**)) . رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ان لى قرابة أصلهم ويقطعوننى واحسن اليهم ويسيئون الى واحلم عنهم ويجهلون على ؟ فقال « لئن كنت كما قلت فكانما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » . رواه مسلم .

والمعنى الشامل لوجوه الصلة : هو ايصال ما يمكن من الخير ودفع ما يمكن من الشر .

ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة . فمنها : واجب ومنها : مستحب فمن وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعا ولو قصر عما يقدر وينبغى له لا يسمى واصلا . ا هـ من شرح

---

(1) سورة الممتحنة آية : ٨ .

صحيح مسلم النووى وقال بعض العلماء : تكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر وبطلاقة الوجه وبالدعاء . ا هـ فتح .

ويشتمل الجميع ايصال كل خير ، ودفع كل شر حسب الطاقة كما سبق ثمرات صلة الرحم : ولصلة الرحم ثمرات كثيرة وردت بها الأحاديث الشريفة . ومن هذه الثمرات : ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأله فى أثره فليصل رحمه » .

رواه البخارى ومن هذا الحديث نقف على ثمرتين من أهم ثمرات صلة الرحم هما :

١ — زيادة العمر .

٢ — زيادة الرزق .

وقد قال البعض : ظاهره يعارض قوله تعالى : **((فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون))** .

وقد حاول العلماء التوفيق بين الحديث والآية على أربعة أقوال :

الأول : ان هذه الزيادة كناية عن البركة فى العمر بسبب التوفيق الى الطاعة ، فيبقى بعد الانسان الذكر الجميل .

الثانى : أن الزيادة على حقيقتها ، وذلك بالنسبة الى علم الملك الموكل بالعمر ، وأما ما دلت عليه الآية فبالنسبة الى علم الله تعالى كأن يقال : للملك مثلا : ان عمر فلان مائة مثلا ان وصل رحمه ، وستون ان قطعها ، وقد سبق فى علم الله أنه يصل أو يقطع فالذى فى علم الله لا يتقدم ولا يتأخر ، والذى فى علم الملك هو الذى يمكن فيه الزيادة والنقص ا هـ . من الفتح .

الثالث : انه محمول على الذرية الصالحة يدعون لأبيهم بعد موته .

الرابع : ان المراد بزيادة العمر نفى الآفات عن صاحب البر فى فهمه وعقله وفى كل شىء .

واما بالنسبة لتكثير الرزق فمحمول على وضع البركة فيه ، بحيث يكفى قليله ويستفاد منه ما لا يكفى الكثير مما لم توضع فيه البركة .

والذى نراه : هو انه لا حرج على فضل الله ، وما دام يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، وجعل لصنائع المعروف ثمرة ، وللدعاء نتيجة ، فلا مانع أن يكتب لمن يصل رحمه مزيدا من العمر والرزق ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

التحلل من المظالم

عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، ان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » رواه البخارى .

لقد حث الاسلام على العدل بصور عديدة ، وعالج نواحى الضعف النفسى ، التى قد تكون منفذا من منافذ الظلم ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » .

وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

وكما حذر الاسلام من الظلم ومن العوامل المؤدية اليه ، عالج الوقوع فيه وارشد الى سرعة التخلص منه ، قبل ان يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم ، فان أخذ الله تعالى للظالمين انمـا أخذ شديد كما قـال تعـالى : (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه اليم شديد » والحديث الذى معنا يحث على سرعة التحلل من المظالم أيا كان نوعها فى العرض أو النفس أو المـال ، فقد حث الحديث على التخلص منها فى الدنيـا قبل الآخرة ، ويكون التحلل مع صـاحب الحق الذى وقع عليه الظلم ، فان لم يكن حيا ، فيكون مع ورثته ويقع التحلل مع المظالمة على صورة مختلفة :

١ — برد الحق الى صـاحبه .

٢ — أو بتمكينه من القصاص .

٣ — أو بأن يستسمح صاحب الحق ، فيرضى ويصفح عنه .

والتحلل من المظالم شرط أساسى ، للتوبة الى الله تعالى ، فاذا كانت معصـية العبد فى الدنيـا تتعلق بحق آدمى ، فان شروط التوبة بالنسبة اليه هى :

١ — أن يقلع عن المعصية .

٢ — وأن يندم على فعلها .

٣ — وأن يعزم أن لا يعود اليها ابدا .

٤ — وأن يبرأ من حق صاحبها ، فان كانت مالا أو نحوه ردّه اليه ، وان كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وأن كان غيبة استحله منها . أما اذا لم تتعلق المعصـية بحق آدمى فلها الشروط الثلاثة الأولى .

وقـد حث الحديث على سرعة التخلص من المظالم قبل أن

لا يكون دينار ولا درهم . وذلك فى يوم القيامة الذى لا ملك فيه لأحد الا لله رب العالمين .

ثم صور الحديث الشريف صورة ما يقع يوم القيامة ، وكيفية أخذ الحقوق لأصحابها : « ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته » وقد وقعت هذه الجملة جوابا عن سؤال نشأ من الكلام وكان سائلا سأل : اذا لم يكن هنـــاك درهم ولا دينار فكيف يقع القصاص فأجيب : « ان كان له عمل صالح .. الخ » . أى ان الله تعالى يعطى ثواب العمل الصالح للمظلوم ويأخذه من الظالم فلا يحسب له فاذا لم تكن هناك حسنات الظالم ، أخذ من سيئات المظلوم فيوضع ما له من ذنوب على ذنوب الظالم ، فان لم توجد حسنات للظالم ولا سيئات للمظوم ، أو كان الموجود منها لا يفى بالحق فان الله الحاكم العادل يعاقب الظالم حينئذ بعذاب النار على قـــدر ظلمه .

وقد يعترض : بأن مثل هذا يتعارض مع قول الله تعـــالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

والجواب على هذا : هو ان الظالم انما يعاقب بسبب ما ارتكبه من ظلم بسبب جنايته ولم يعاقب بجناية غيره .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متـــاع ، فقال : ان المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا واخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من سيئاته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » أخرجه مسلم .

ونورد الآن حكم الغيبة ، وهل فيها مظلمة يجب ان يتحلل منها المغتاب ام لا ؟ والجواب على هذا : هو أن الغيبة من الكبائر قال تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا » وفى الحديث « دماؤكم واموالكم واعراضكم عليكم حرام » .

وقد اتفق العلماء على انها من الكبائر ، يجب التوبة الى الله منها . واختلفت الآراء : هل يستحل المغتاب أم لا ؟

١ — فقال بعضهم : ليس عليه استحلاله ، وانما هى خطيئة بينه وبين ربه ، واستدل أصحاب هذا الرأى بانه لم يأخذ شيئا من ماله والا اصاب من بدنه ما ينقصه ، فليس فى ذلك مظلمة يستحلها منه وانما المظلمة ما تكون فى المـال والبدن .

٢ — وذهبت فرقة اخـرى : الى أن الغيبة مظلمة وكفارتها الاستغفار لصاحبها الذى اغتابه ، واستدلوا على ذلك بما روى عن الحسن :

« كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته » .

٣ — وذهبت فرقة ثالثة : الى أن الغيبة مظلمة وعلى صاحبها الاستحلال منها ، واستدلوا على ذلك بما اخرجه البخارى من حديث أبى هريرة الذى نتناول شرحه الآن .

والذى نرجحه : هو الرأى الثالث ، القائل : بان على الذى اغتاب الاستحلال من غيبته ، مستدلين بهذا الحديث ، هو يدل على التحليل ومعلوم أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحجة وفيه البيان الصـحيح ، ولأن التحـلل كذلك يدل على التعاطف والتراحم ، وهو من قبيل العفو ، قال الله تعالى :

« فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » .

اللهم الا اذا ترتب على الاستحلال خطر شديد ، وخيف أن يجر الى اندلاع فتنة كبرى ، فانه حينئذ يمسك عن الاستحلال حتى يواتيه الظرف المناسب له ، ويقوم بالتوبة والاستغفار لأخيه .

وأما الرأيان : الأول ، والثانى ، فنرى أن أصـحاب الرأى الأول ينفون الاستحلال متعللين بأنه لم يصب مالا ولا بدنا ،

فليس فى ذلك مظلمة ، والحق : ان اجماع العلماء منعقد على أن القاذف للمقذوف مظلمة ، وهذا ليس فى البدن ولا فى المال تدل على ان الظلم يكون فى العرض كما يكون فى البدن والمال .
واما الرأى الثانى : القائل انها مظلمة يغفر لصاحبها ، ففيه تناقض لأن قولهم : « مظلمة » يثبتون ظلامة المظلوم ، واذا ثبتت لم ترفع عن الظالم الا باحلال المظلوم له .

منزلة العمل

عن المقداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما اكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه وان نبى الله داود صلى الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده » . رواه البخارى .

الاسلام هو دين العمل ، وقد حث الله تعالى المسلمين عليه وذلل لهم الأرض ، ليمشوا فى مناكبها ، قال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » وقال تعالى : « وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » .

والحديث الذى معنا يرفع من قيمة العمل ، ويبين منزلته السامية فى الاسلام ، يروى المقداد بن معد يكرب الكندى رضى

الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أكل احد طعاما قط .. الخ » . والمراد : كل انواع الانتفاع من المال الذى يحصل عليه الانسان من عمل يده ، وليس المراد تخصيص الاكل بالذات الا انه نص على الأكل ، وخصه بالذكر ، لأنه اظهر وجوه الانتفاع واهمها .

والخيرية المقصودة فى قوله : « خيرا من ان يأكل من عمل يده » تكون فى الدنيا وفى الآخرة .

اما فى الدنيا : فان النفع يعود على العامل ، وعلى غيره فمن يصل اليه نفعه ، كما ان الانسان بالعمل يحفظ ماء وجهه ، ويصون كرامته الانسانية من المذلة لانسان .

واما فى الآخرة : فبما يحصله من ثواب عظيم ، وأمر كريم ، حيث استجاب لله ورسوله ، فسعى فى الحياة ، وحظى بشرف العمل ومثوبته .

ويشمل انواعا كثيرة ، دعا اليها الدين ، وحث عليها القرآن والسنة فهناك العمل الزراعى ، وفيه يقول الله تعالى : « وآية لهم الأرض الميتة احييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم افلا يشكرون » .

وعن انس رضى الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة ، الا كان له به صدقة » .

وهناك العمل التجارى : قال تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » ، وقد حض الاسلام كل من يشتغل بالتجارة أن يتحرى الصدق والأمانة وبين انه ان صدق كانت له عند الله منزلة عظيمة ، قال عليه الصلاة والسلام : « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » .

وهناك العمل الصناعى : قال الله تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثه نفر الجنه : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى به ، ومنبله » . رواه أبو داود .

وكما وجه الاسلام الى الانتفاع بخيرات الأرض وجه الانسان كذلك الى الانتفاع بخيرات البحر . فقال تعالى : « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا » ، كما وجه الانسان الى الانتفاع بالثروة الحيوانية عامة فقال تعالى : « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » .

وهكذا نرى أن الاسلام يحث أتباعه على العمل فى شتى جوانب الحيـــاة .

وقـــد حرص على أن يتقن كل واحد عمله ، قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحب اذا عمل احدكم عملا أن يتقنه » أى يحسنه . والعمل المتقن هو القائم كذلك على اساس علمى وتخطيط مدروس ، يبذل فيـــه أفراد المجتمع غاية ما فى وسعهم عليه وسلم مثلا على شرف العمل ومنزلته بأن نبى الله داود عليه نهوضا بالأمة وتقدما بالمجتمع ، وقد ضرب الرســـول صلى الله عليه وسلم مثلا على شرف العمل ومنزلته بأن نبى الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده ، فكان يصـــنع الدروع ويبيعها ، فيأكل من ثمنها . وفى هذا بيان لسمو العمـــل ورفعة منزلته فى الدين ، حيث أنه طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد كان لكل واحد منهم نوع من العمل يقوم به ، ويعيش من ثمرته وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم داود بالذكر دون سائر الأنبياء عليهم جميعا الصلاة والسلام لأنه كان غنيا عن التكسب ، وليس فى حاجة الى العمل ، لتوافر المـــال لديه ، ومع هذا فلم يرض أن يأكل الا من عمل يده ، فيكون غيره اذا اولى بذلك .

وقد كان داود عليه السلام خليفة لله فى الأرض ، وقد سخر الله له الجبال والطير ، وأخضع له الجن والانس ، قال الله تعالى : « ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير والنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » أى أصنع الدروع الحامية من الأعداء ، وأحكم صنعها ، وقال تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم » أى تكون واقية لكم وتحميكم فى وقت الحروب .

الرد على شبهة أعداء الاسلام :

وقد أثار بعض اعداء الاسلام شبهة حول العمل فى الاسلام أرادوا من ورائها أن يتهموا الاسلام بأنه يأمر أتباعه بالتواكل وترك العمل ، وحسبنا فى الرد على هذه الشبهة بالاضافة الى ما سبق ، أن نقف على بعض توجيهات الاسلام فى الجانبين معا — العمل ، والتوكل — وعندئذ لا نجد تنافيا بينهما البته ، فالقرآن الكريم ، وجه المسلمين أولا الى وجوب القيام بالعمل ، وأداء ما وكل اليهم من مهام أن يأمرهم بالتوكل على الله قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : « وشاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » ، وأمر الله السيده مريم عندما أجاءها المخاض الى جذع النخلة أن تهزها لتساقط عليها الرطب ولو شاء سبحانه أن ينزله عليها دون أن تسعى وتهز النخلة لفعل ، ولكن الله تعالى أمر بالعمل ، وربط الأسباب بنتائجها فقال : « وهزى اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » وعندما جاء أعرابى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : أتوكل على الله ؟ — وكان قد أهمل ناقته قال له عليه الصلاة والسلام « اعقلها وتوكل » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السما ءلا تمطر ذهبا ولا فضة ومما ينبغى الاشارة اليه : أنه ليس فى دعوة الاسلام الى العمل والسعى ذريعة لأن ينشغل الناس بذلك عن دينهم وعباداتهم ، لا ، فان العمل فى الحياة طريق الى مرضاه الله

تعالى ، فلا يصح أن ينسى صاحبه بذلك ربه أو يفرط فى جنبه .
هذا وقد رفع الاسلام من قيمة العمل مهما كان نوعه ، حتى لا يتخاذل الناس فى ميدان الحياة ، او يتحرج بعض اصحاب الأعمال البسيطة ، فبين أن العمل خير للانسان من أن يسأل الناس ، لأن ترك العمل يؤدى الى الفاقة ، وهى بدورها تسلم الانسان الى ذل المسألة ، فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يأخذ احدكم حبله فيأتى بحزمة حطب فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسال الناس اعطوه او منعوه »

فضل الحياء

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم
يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم ما بنطوى عليه الايمان من
رواه الشيخان .

يوضح الرسول صلى الله عليه وسلم ما ينطوى علبه الايمان من محامد الفعال ، وكريم الخصال ، وانها كثيرة ، فهى بضع وستون شعبة .

وفى رواية « بضع وستون » وليس بين الروايتين تناقض ، فالمراد التكثير وذكر البضع للترقى يعنى أن شعب الايمان كثيرة لا حصر لها وقيل : ان المراد حقيقة العدد ، ويكون قد صرح فى بادىء الأمر بالبضع والستين ، لأنه الذى وقع وحدث حينئذ ، ثم زادت شر أخرى فنص عليها ثم نبه على شعبة من هذه الشعب هى أهمها ، الا وهى الحياء .

والحياء : خلق كريم يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير فى حق ذى الحق وينشأ من الخوف من الله واستشعار مراقبته ، هذا تعريفه الشرعى .

وأما معناه فى اللغة : فهو تغير وانكسار يعترى الانسان من خوف ما يعاب به . والحياء يعصم المرء من مزالق الشر ، ويفضى به الى مسالك البر والفضيلة والخير .

وقد روى فى حديث آخر ثمرات الحياء جملة فورد : « الحياء خير كله » « والحياء لا يأتى الا بخير » لأنه يوجه صاحبه الى المعروف والطاعة ، ويحجزه عن كل منكر ومعصية .

وتوضيح الحياء بهذا المفهوم ، وهو أنه باعث على اجتناب القبيح ، ومانع من التقصير هو الحقيقى الشرعى ، اما حين يمتنع انسان من قول الحق ، أو من فعل الخير متعللا بما يزعم من حياء فليس هذا من الدين ، ولا من الحياء فى شىء ، بل هو عجز ومهانة ولا ينشأ الا من ضعف الدين .

وخص الرسول صلى الله عليه وسلم شعبة الحياء بالذكر دون سائر الشعب تنبيها على ما للحياء من اثر فى سلوك الانسان ، فالحياء يدعو الى سائر الخصال ، الحميدة ، والحيى يخشى الله تعالى ويخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر بأمر ربه وينتهى بنهيه .

اما من لا حياء عنده فلا خير فيه ، لأنه لا يرى بأسا فى اعلان فسقه أو شره ، ومن هنا وجب تحذير الناس منه ، ومن ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له .

وقد اجتهد بعض السلف فى حصر ما تفرعت عنه شعبه الايمان ، فمنها ما يتعلق بأعمال القلب : كالايمان والاخلاص والحب فى الله . ومنها ما يتعلق بأعمال اللسان كالتوحيد والذكر وتلاوة القرآن والاستغفار . ومنها ما يتعلق بالبدن كالصلاة والزكاة والصيام والحج وهكذا ..

وفى رواية مسلم ما يشير الى أن شعب الايمان متفاوته علوا ونزولا « أعلاها : لا اله الا الله وادناها اماطة الأذى عن الطريق » أى تنحيته من طريق المسلمين .

وكثيرا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على التخلق بالحياء .

وقد مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحيــاء ليكفه عنه ، لمـــا يزعم أن فيه ضعفا فنهاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : « دعه فان الحياء من الايمان وكان صلى الله عليه وسلم خير من تمثل فى شخصه الشريف خلق الحياء ، فهو رقيق الشعور ، دقيق الاحساس ، اذا رأى شيئا لا يحبه مما لا يتصل بشأن الدين ظهر فى وجهه وعرفه أصحابه ، أماما يتصل بأمور الدين فكان أسرع ما يكون الى تغييره ما استطاع الى ذلك ســـبيلا .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رســـول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء فى خدرها فاذا رأى شيئا يكرهه عرفناه فى وجهه .

وحسب هذه الفضيلة شرفا أنها خلق الاسلام كما قال صلى الله عليه وسلم : « ان لكل دين خلقا وان خلق الاسلام الحياء » .

بل ان الحياء هو خلق كل الأديان ، قال صلى الله عليه وسلم : « ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : اذا لم تســـتح فاصنع ما شئت » .

وأما التفقه فى الدين فلا ينبغى أن يستحيا منه ، جاءت أم سليم الى رسول الله صلى الله عليه وســـلم فقالت : يا رسول الله ان الله لا يستحيى من الحق ، فهل على المرأة غسل اذا احتلمت ؟ فقال : « نعم اذا رأت المـــاء » وقد عد بعض العلماء تلك الشعب منهم ابن حبان ، فلخص الحافظ ابن حجر فى الفتح ما أورده ، وبين أن تتفرع من أعمال القلب واعمال اللسان وأعمال البدن كما ســـبق .

واعلى أنواع الحياء : هو الحياء من الله تعالى ، وذلك بطاعته سبحانه فلا يراك حيث نهاك وهذا بمعرفته ومراقبته فى السر وفى العلانية وهذا هو المراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما اخرجه الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استحيوا من الله حق الحياء » قالوا : انا نستحى والحمد لله ، فقـــال :

« ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

قد جعل الحياء شعبة من الايمان مع أنه من الغرائز ، لأنه قد يكون غريزة وقد يكون تخلقا ، ولكن استعمال الحياء فى الشرع لابد له من نية واكتساب فكان من الايمان لهذا ، ولأنه يبعث على الطاعات ويمنع من ارتكاب المعاصى والمخالفات .

والمراد بالايمان فى الحديث هو الايمان الكامل الذى يتكون من التصديق والاقرار والعمل .

القائم على حدود الله والواقع فيها

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم اعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو انا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان اخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » رواه البخارى .

ان القائم على حدود الله هو المراقب لها ، بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان الواقع فيها هو الذى ترك الأمر بالمعروف ، وارتكب المنكر .

ومثل هذين كمثل قوم اقترعوا على سفينة مشتركة بينهم تنازعوا فى الاقامة فيها ، بين المكان الأعلى ، والمكان الأسفل فأصاب بعضهم عن طريق القرعة أعلى السفينة ، وأصاب البعض الاخر أسفلها ، فكان الفريق الذى فى اسفل السفينة اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم وفى رواية : « فكان الذى فى أسفلها يمرون بالماء على الذين فى أعلاها فتأذوا به » فقالوا : لو انا خرقنا فى نصيبنا

خرقا ولم نؤذ — أى لم نضر — من فوقنا ، فان تركوهم وما أرادوا من الخرق فى نصيبهم هلكوا جميعا . وان أخذوا على أيديهم نجـوا ونجـوا جميعا .

وهكذا الحال بالنسبة لاقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن اقامها، ولمن أقيمت عليه ، وأما اذا لم تقم فان العاصى يهلك بمعصيته وان الساكت عن المنكر يهلك بسكوته ، لأنه راض على المعصـية مقر بوضـعها .

وفى هذا التوجيه النبوى الحكيم ارشاد للمجتمع الاسلامى أن ينشد افراده الخير لأنفسهم ولاخوانهم ، ويحققوا على الأرض ، أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر ، وايمانا بالله قال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . وقد بينت السنة الشريفة مراتب النهى عن المنكر وتغييره، وأنها تبدأ أولا باليد ثم باللسان ثم بالقلب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وهذه المرتبة الأخيرة تظهر حين يغضب المسلم لغضب الله ، فينأى عن مرتكب المنكر ولا يتخذ منه صاحبا ولا يتعامل معه ، فان استطاع المجتمع أن يهمل مرتكب المنكر ويزدريه من قلبه ، فانه يرى حينئذ أنه اصبح منعزلا فيستشعر ذنبه ويكون للرأى العام هنا أثره فى اصـلاحه وتغيير المنكر بالنسـبة له .

أما ان سكت افراد المجتمع عن المنكر وتركوه يستشرى فيهم وتنتقل عدواه من شخص لآخر ، فانه سيترتب على ذلك هـلاك العاصين والصالحين معا ، أما العاصون فيهلكون بعصيانهم ، وأما الصالحون فبسكوتهم ، قال الله تعـالى :

(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وان عدم القيام بالنهى عن المنكر ذنب كبير ، يصبح به صاحبه ملعونا مطرودا من رحمة ربه قال الله تعالى : (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

ويستفاد من هذا الحديث ما يأتى :

١ — توضيح الأمور المعنوية بالمحسوسة لتقريبها الى العقول .

٢ — صحة اجراء القرعة فيما يختلف الناس فيه من أمور .

٣ — مسئولية الفرد والجماعة والأمة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

٤ — شدة خطر المنكر ، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة تشمل الصالح والطالح اذا ترك المنكر دون مقاومة ، ولم يأخذ الناس على أيدى أصحابه . عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : يا أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) . وانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (رواه أبو داود والترمذى) .

٥ — ينبغى على المسلم أن يصبر على أذى جاره اذا خيف وقوع ما هو أشد ضررا .

٦ — جواز أن يقسم العقار المتفاوت عن طريق القرعة . قال ابن بطال : والعلماء متفقون على القول بالقرعة الا الكوفيين فانهم قالوا : لا معنى لها ، لأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها .

المفلس يوم القيامة

عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : « ان المفلس من امتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، واكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » رواه مسلم والترمذى .

ان الغاية المنشودة من العبادات فى الاسلام ، ان تزكى النفس الانسانية وتصقلها ، وتوثق صلة الانسان بخالقه ، وصلته بالناس على أساس من العقيدة الصحيحة ، والخلق الحسن ، فبالصلاة ينتهى المسلم عن الفحشاء والمنكر ، وبالزكاة تترعرع الألفة بين القلوب ، وينمو الحنان والاحسان بين الناس وبالصوم يتمرس

الانسان على الصبر وسائر خصال البر والتقوى ، وبالحج تتم سائر الفضائل الدينية والأخروية التى تغرسها مناسكه فى قلب المسلم ..

وهكذا تثمر العبادات فى الاسلام ثمرتها وتؤتى اكلها ، اذ صدقت بها نية صاحبها ، وتعهدها بمعالجه نفسه ، وارتوت منها أحاسيسه ، أما اذا أداها لمجرد عاده يقوم بها ، وأفعال جامدة لا روح فيها ، فلا وزن لها ، ولا ثمره نرجى من ورائها ..

وما اكثر ما نرى من يحرصون على العبادات ويظهرون بالمداومة عليها ثم يفعلون ما ينافى مع روح العبادة ، ويقترفون ما لا يرضاه الدين . ان أمثال هؤلاء قد أدوا عباداتهم اشكالا هشة ، وكانوا كمن يحمل كثيرا من الدراهم ، وعليه أضعافها من الديون ، فان حل وقت الأداء وجدها قليلة الجدوى ، أكثرها مزيف ولا يغنى فتيلا .

ان الحديث يصور لنا حقيقة المفلس ، وانه يكون معدوم النفع بين الناس ، قليل الخير ، كثير الشر فى الدنيا . كما أنه فى الآخرة هالك خاسر لا رصيد له من الخير ، حيث تؤخذ حسناته لغرمائه ، فاذا ما انتهت حسناته ولم تف بما عليه من حقوق ، أخذ من سيئاتهم فوضع عليه ، ثم ألقى فى النار ، فتتم خسارته ، ويصبح صفر اليدين ، وما له فى الاخرة من نصيب أما ما حسبه الناس من أن المفلس هو من لا درهم له ولا متاع ، فليس على حقيقته ، فان من لا مال له أو من قل ماله ، قد يحصل على اليسار فينقطع افلاسه ، أو قد يموت مثلا .. أما من لا رصيد له من الدين فهو الخاسر فى الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين .

وهكذا يتضح لنا كيف تؤدى الأخلاق السيئة بصاحبها الى مهاوى الهلاك . ومهما كثرت العباده .. والعكس صحيح فان قليلا من العبادات الصحيحة الكاملة مع حسن الخلق تكفل النجاة لصاحبها: وفيما روى عن النبى صى الله عليه وسلم أن رجلا قال له يا رسول الله . ان فلانة تذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها ؟ فقال : هى فى النار . ثم قال : يا رسول الله فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط — أى قطع الجبن — ولا تؤذى جيرانها ؟ قال : « هى فى الجنة » رواه أحمد .

وخصال الشر : كالكذب فى الحديث ، وخلف الوعد ، وخيانة الأمانة اذا اجتمعت فى انسان اوردته موارد البوار ، وجعلته بعيدا عن جوهر الاسلام ، هالكا مع المنافقين ، حتى وان ادى العبادات وأظهر الاسلام ، قال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وان صام وصلى وحج واعتمر وقال : انى مسلم : اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أؤتمن خان » رواه مسلم .

الرد على شبهة (المبتدعة) ؟

زعم بعض المبتدعة أن هذا الحديث معارض لقوله تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وهذا زعم باطل ، وفهم للحديث على غير مقصده ، ذلك أن معنى الآية : لا تحمل نفس آثمة اثم نفس أخرى ولكن تحمل كل نفس وزرها ، بل ان حاولت نفس أثقلتها ذنوبها ودعت أحدا ليخفف عنها ويحمل بعض أوزارها فلن تجد من يجيبها حتى ولو كان ذا قربى ، « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ولذا جاء بعد ذلك فى الآية : « وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى » .

وأما ما يثبت فى الحديث فانه انما عوقب بما ارتكبه من ظلم وما عمله من عمل فلما اريد دفع ما عليه من حقوق لغرمائه أخذ من حسناته فلما فرغت حسناته وما زالت عليه حقوق أخذ من سيئاتهم فوضعت عليه ثم القى فى النار وهذا على حسب ما اقتضته الحكم الالهية فسيئات الخصوم التى تحملها الظالم هى بمقدار ما عليه من حقوق باقية وليست شيئا زائدا فكانت العقوبة هنا بسبب الظلم ولم تحدث أبدا بغير جناية .

وفيما رواه البخارى ما يؤيد هذا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه، أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكونَ دينار ولا درهم ان كان له عمل صالح أخذ معه بقدر مظلمته وان لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه .

مقاومة الإسلام للعصبية والتفرقة العنصرية

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا اهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن يجترىء عليه الا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : « يا أيها الناس انما ضل من قبلكم انهم اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » رواه الشـيخان .

وقبل أن نتناول هذا الحديث بالبيان والتحليل نشير هنا — فى ايجاز — الى أن الإسلام قد حرص على استتباب الأمن ، ونشر أسباب الوقاية من الاجرام والطغيان ، قبل اصدار قوانينه الخاصة بالعقاب ، وذلك بالأمر « بالعمل » ، ليشتغل كل انسان بعمله ، فلا يبقى هناك مجال للتفكير فى العدوان الذى ينتج عن البطالة ، كما كفل الاسلام حقوق الناس جميعا على مختلف طبقاتهم ، فقرر العدل والتواصى بالحق وقرر مساعدة المحتاجين الذين لا يجدون عملا ولا يستطيعون العمل ، فأشرقت من تعاليم الاسلام أسمى المبادىء الانسانية الرحيمة فى التضامن الاجتماعى ، اخمادا لثورة الغضب والانتقام التى يكون مبعثها الشعور بالظلم .

بعد ذلك لم يبق للانسان من عذر فى العدوان ، فاذا تمت كفالة

حقوقه على هذا النحو السابق ثم اعتدى ومد يده كان لابد من فحص حالته حتى لا تكون هناك شبهة ، فاذا ما ثبتت ادانته بعد كل هذا ففى ذلك دلالة على أنه قد التاثت فطرته ، وعميت أو تعامت بصيرته فلابد اذا من الحاق العقوبة به ، واقامة الحد عليه ، واستفاضت الأحاديث النبوية الشريفة فى طلب الحدود بصورة تجعل المسلمين يبادرون الى اقامة شريعة الله ، وتنفيذ حدوده التى شرعها ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم من امام عادل افضل من عبادة ستين سنة وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر اربعين عاما » رواه الطبرانى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم » رواه ابن ماجه .

كما وضحت السنة الشريفة اثر ذلك بالنسبة للفرد والمجتمع وأنه ان لم نأخذ على يد الجانى يعم الهلاك ، وان أخذنا على يديه نجا الجميع .

والحديث الذى معنا يرسى قاعدة اساسية فى المساواة بين الناس ، على ضوئها تحل مشكلة المحسوبية ، والتمييز العنصرى بتطبيق عملى حازم ، لا تعرف الدنيا له مثيلا وبهذا نرى كيف كان للاسلام فضل السبق فى ارساء قواعد الحق ، وتطبيق المبادىء السامية التى لا يفرق فيها بين انسان وآخر . لا تمييز ولا محاباة ولا فضل الا بالعمل الصالح ، قال الله تعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا » وكان ورود هذا الحديث الشريف ، يوم فتح مكة عندما ارتكبت هذه المرأة المخزومية وهى فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد جريمة السرقة فرفع أمرها الى الرسول عليه الصلاة والسلام لاقامة الحد

فرفع أمرها الى الرسول عليه الصلاة والسلام لاقامة الحد عليها لحماية الدين والنفس والمال والعرض ، وهى الوسيلة الرادعة التي فى ظلها يأمن الناس ويرجع المجرمون عن اجرامهم حين يعلمون انهم لو ارتكبوا فاحشة أو اعتدوا على حق ما أقيمت عليهم الحدود فينزجر كل باغ ويرجع عن بغيه خوفا من الحد ، هذا بالاضافة الى أن الحد لا يقام الا بعد بيان أن ذلك الباغى قد نفذت كل الوسائل معه واصبح يشكل خطرا داهما على المجتمع فلابد من استئصال شره وخطره .

« وفق الله مجتمعنا الى عمل الخير ، وخير العمل ، وجعل هذا العمل خالصا لوجهه نافعا لمن يقرؤه ، وغفر الله لى ولوالدى ولسائر المسلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

ما رايك

ــ وبعد يا عزيزى القارىء الكريم ...

هذه رسـالة اسـلامية يقدمها لك المجلس الأعلى للشئون الاسـلامية فى الخامس عشر من كل شـهر عربى ، فلعلها تحوز رضـاك ، وترد على بعض الأسـئلة التى تراودك ، وتـدور بخلد كل مسـلم غيـور على دينـه ، حريص على الاستزادة من مناهل الاسلام العذبة .

اكتب لنـا برايك فيها ، وما يروقك من توجيهـات تهدف ــ أولا وأخـيرا ــ الى خدمة أجل رسـالة وأتم هـدف .. وثق أننا سـنكون عنـد حسن ظنـك وسـنلبى طلبك .. وستكون رسـالتك موضـع الاعتبار والتقدير فنرد عليهـا اذا كانت حرية بذلك .

والله نسـأل أن يلهمك السـداد والتوفيق .

على أن يكون خطابك متضمنا البيانات التالية :

الاسم : . . . .

العنوان : . . . .

الوظيفة : . . . .

ويرسل الى المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

القاهرة : ٣ شارع الأمير قدادار متفرع من ميدان التحرير

قسم الرسـائل والتراث

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع ٤٥١٤ / ١٩٧٦.

الترقيم الدولى ٨-١٦-٢٤١-٩٧٧ ISBN